
رواية
بائع
الفستق
ريم بسيوني

روايـــة

بائـع الفـسـتـق

تأليف: د. ريم بسيوني

إشـراف عام: داليا محمد إبراهيم

الترقيــم الدولي: 978-977-14-5283-6
رقــم الإيـداع: 2015/13743
طبعــــة: أغسطس 2015



21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
تليفـــون: 33466434 - 33472864 02
فاكـــــس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E- mail: publishing@nahdetmisr.com

«يمكن هزيمة الواقع بالكثير من الخيال»

مقولة إنجليزية لكاتب مجهول

إهـداء

إلى من قال إن مصر الآن مستعدة للفستق

الـرحـلـة

«الخيال أكثر أهمية من المعرفة، فالمعرفة محدودة،
أما الخيال فيمتد ليحيط العالم»

ألبرت أينشتين

- 1 -

كيف تقع المرأة في الحب؟

عندما ترى الرجل من زاوية مختلفة.

كان يوم سبت، وانقطع التيار الكهربائي ساعتين، ثم عاد. وعندما عاد كانت معظم اللمبات في الصالة قد احترقت، كما احترق أحد «الأكباس الأساسية للشقة».

وظهرت الحيرة على أمي وعلى أخي وحتى على أبي، حتى قام أشرف وتطوّع بإصلاح الأكباس وتغيير اللمبات.

وقف على المنضدة.. كان طويلًا.. نعم.. رأيت رجليه تكادان تمتدّان إلى السماء. كان طويلًا وأسمر اللون، وجهه كان نحيفًا وابتسامته كابتسامة أخناتون. تلك الابتسامة المُتعَبة الساخرة، وكأنه يقول: لا أصدقك! وسئمت ألاعيبك ولكني لا أبالي.

أشرف داود كان يعرف أنه وسيم... هناك رجال ترى الغرور يلمع في أعينهم، فيحجب ضوء الشمس، وعيناه لم تحتاجا إلى نظارة شمس! الغرور كان يلمع ويتصبب منهما.

نظرت له أمي في إعجاب قائلة: كنتَ كهربائيًّا من قبل؟

هز رأسه بالنفي: لا ولكني أحب الأعمال اليدوية.

بقي الجميع يشاهدونه في صمت.

كان يوم سبت.... وبينما هو يغير لمبة واقفًا على السلم الخشبي في الصالة في الضوء الخافت الآتي من النافذة قررت أن أحبه.

شيء ما في قميصه الأبيض، وبنطلونه الجينز، ويده التي أراها في الضوء الخافت، العروق التي تنبثق من يده لفتت نظري له لأول مرة. وكانت هذه بداية قصة حبي لأشرف، وعندما نزل من على السلم وأمسك بالفوطة من خالته، وبدأ يمسح يده، كنت أنا أحملق في يده وفي الفوطة وقلبي يدق كما لم يدق من قبل.

نظرت إلى جيب بنطلونه، حيث تكمن بضع حبات من الفستق. وقعت حبتان على الأرض فأفزعني صوتهما... مستديرتان، صغيرتان، الفستقة تنظر

بحذر من قشرتها، ولونها الأخضر ينم عن براءتها وبريقها. كانت الفستقة الأولى بريئة وجميلة، أما الثانية... فلونها بدا باهتًا مخيفًا وكأنها كل العملات الزائفة والقوانين البالية والسياسات الديمقراطية والرأسمالية والمتطرفة معًا، كأنها كل الأفكار الهدَّامة والأفكار المتعجرفة. كأنها عذاب الأيام الماضية والأيام القادمة. كانت فستقة رخيصة رخص الحضارات الجديدة، ومتعفنة كعفن الحضارات القديمة. كانت فستقة باهظة الثمن ولا يُعرَف منبعها. هل كانت قادمة من الشرق أم من الغرب؛ من بلاد أشرف الكثيرة أم من عند الصهاينة أم الأمريكان أم العراقيين أم السوريين أم الإيرانيين أم الأتراك أم الإنجليز؟

كانت فستقة صغيرة ومخيفة ورهيبة كرهبة الموت، ولغزها لم يترك مخيلتي كما لم يترك مخيلتي لغز الموت.

أشرف داود. أحببته حبًّا غضًّا وعنيفًا.

كنت أكرهه كرهًا كبيرًا من قبل. والآن فجأة تغير كل شيء، ولا أدري لماذا.. ابتسمت في خجل، ربطت رأسي بالأرض، ولم أكن أدري ماذا أفعل.. ربما عليَّ أن أساعد أمي.. نعم.. لو ساعدت أمي فسوف يشعر كَم أنا طيبة، وسوف يحبني.

قلت وأنا أتجه إلى المطبخ: ماما، حاغسل المواعين، وبعدين أحضَّر العشا، عايزة حاجة تانية؟!

نظرت إليَّ أمي، وكأنها تفهم كل شيء، ثم قالت: لا يا وفاء يا حبيبتي، بس اعملي لأشرف قهوة. إنت عارفة قهوته دلوقتي.

بدأ العرق يتصبب مني وأنا أعدُّ القهوة، ثم جئت بها ووضعتها أمامه وجلست أنظر إليه... ربما لا أحبه.. ربما... لا أدري بماذا أفسر هذه المشاعر الغريبة التي أشعر بها .... ربما أراه وسيمًا. نعم. لا يوجد مشكلة في أن أجد رجلًا وسيمًا... لا.. هناك مشكلة كبيرة في أن أجد رجلًا وسيمًا، أنا لا أنظر إلى الرجال، ولكن أشرف مختلف.

ربطت نظري بالأرض، ولم أنطق، وهو ينظرإليَّ في شيء من الدهشة، شيء من الفضول، ثم قال: إذا كانت عندك مذاكرة يا وفاء فاذهبي إلى حجرتك، أنا مش غريب.

قلت مسرعة: نعم... حاضر، سأذهب.

ثم قلت مرة أخرى: ولكني انتهيت من مذاكرتي..

أمسك بكوب القهوة وابتسم قائلًا: شكرًا على القهوة يا وفاء. عندما تأتين لتزوريني في القاهرة، سوف أجهِّز لك الغداء بنفسي.

كانت كلماته كفيلة بأن تقضي عليَّ... تصبَّب العرق مني من جديد وأنا أشبك أصابعي، ولم أنطق.

ربطت نظري بيديه... وراح خيالي هنيهة مع يديه.... شعرت بيده على يدي، يمررها على يدي، يأسر يدي ثم يمررها على ذراعي، ثم يمررها على..

الشيطان! ما أسوأ الشيطان! ها أنا أتخيل أشياء لا تتخيلها فتاة طيبة من عائلة مثلي! ماذا حلَّ بي؟ عليَّ أن أتحكَّم في عقلي من اليوم. نعم. فلو عرف أشرف هذه الأحلام الشريرة، أو لو عرفت أمي يا إلهي لو عرفت أمي!

قمت مسرعة ومشاعري تربكني وتخيفني، هل ما شعرت به ناحيته حب؟ هل هذا هو الحب؟ وتلك الأحلام الشيطانية، ما هي؟

دخلت حجرتي. لم أخرج منها ولم يعفني خيالي من الأحلام.

بدأت القصة منذ أعوام مضت. عندما عاد أشرف من بريطانيا. منذ حوالي ثلاثة عشر عامًا.

* * *

مطار القاهرة الدولي 1980:

«كم أشفق على المطارات! أماكن لا تصبح غاية في حدّ ذاتها أبدًا .... كزيارة الغانيات بالضبط... من يزور غانية ويبقى؟ هذا لا يعني أنني زرت غانية يومًا... ولماذا أزور غانية؟ ولماذا أبقى؟ من منا يتوق إلى مطار ما؟ من منا لا يشعر بالملل وهو في طابور الدخول أو الخروج من بلد أو في انتظار حقيبته؟ لقد عاهدت نفسي أنني يومًا ما سأذهب إلى مطار ما كغاية في حد ذاتها... وسوف أقضي ساعات أشاهد الإعلانات وأقرأ تفاصيل الرحلات وأتكلم مع ضباط الجوازات وأحملق في الحقائب.... سوف أقضي ساعات أشرب الشاي، وأستمع إلى صوت الميكروفونات التي تعلن عن قيام رحلة ما إلى مكان ما»!

هكذا قال أشرف لنفسه...... وهو يدخل مطار القاهرة الدولي. أما أنا، فلم أسافر قط خارج مصر.

نظر أشرف إلى جواز سفره البريطاني وجواز سفره المصري.

وقال: والآن... أي جواز سفر أحتاج.. ؟

«لكل عصر جواز سفره، ولكل وطن شعور مختلف!».

هكذا قال أشرف لنفسه وهو ينظر إلى الجوازين في حيرة وشيء من القلق!

ماذا يتوقع من مصر

وطنه الذي لا يعرفه ولم يعش فيه؟

قضى طفولته في المدارس الداخلية البريطانية كما أراد والده. كان يريده بريطانيًّا، وكانت أمه تريده مصريًّا، واحتدم الصراع بينهما، وأخذ صورة صراع حضاري غريب لا يفهمه.

تعلَّم في المدارس الخاصة البريطانية كيف يكون ساحرًا، يسحر من حوله بكلامه العذب وابتسامته المشرقة. تعلم أن التعبير عن الغضب أمام الآخرين كخلع الملابس الداخلية في ميدان الطرف الأغر! المشاعر لا تخلق حضارة، بل تقتل الحضارات. ربما يشعر أنه أفضل وأذكى من غيره، ولكنه تعلم أن يكبت الاحتقار كما يكبت الغضب. وفي المدرسة الداخلية تعلم أن يكبت أيضًا الشوق لأمه. تعلم أن يكون إنجليزيًّا، ويحافظ على آداب المائدة، ويقول شكرًا ومن فضلك!

شبَّ على عصر حزب المحافظين، وعلى مال والده الطبيب. أمانيه متواضعة، يريد أن يصبح من أغنى الأغنياء ويستمتع استمتاعًا معتدلًا بلذات الحياة!

نظر إلى الطابور الطويل واللافتة: «غير المصريين».

و الطابور الآخر أقصر: «المصريين».

خبَّأ جواز السفر البريطاني في جيبه، وأشهر جواز السفر المصري، وابتسم لضابط الجوازات وهو يعطيه له.

بدأ الرجل في كتابة البيانات ثم قال: عودة دائمة؟

هز رأسه بالنفي: بس حشتغل هنا سنة في بنك بريطاني.

أعطاه جواز السفر وقال في ميكانيكية: حمدًا لله على السلامة.

نظر إلى الحقائب التي تدور أمامه في فتور. هذه هي اللحظة التي يكرهها، انتظار الحقيبة وأحيانًا لساعات... هل تغيَّرت مصر إذن؟ جاء هنا لزيارة قصيرة منذ سبعة أعوام كان في بداية العشرينيات ذهب في رحلة قصيرة إلى الأقصر مع أصدقائه وقضى أسبوعًا مع خالته منال، إجازة لم تتعد الأسبوعين. إجازة كالإجازة التي يذهب فيها إلى قبرص أو اليونان أو إسبانيا.

«هنا يكمن سر الحياة».

هكذا قالت أمه. ما يعرفه عن مصر هو كتب عن الفراعنة تحتفظ بها أمه وبعض الصور القديمة لعائلتها وأغاني عبد الحليم حافظ وأم كلثوم.

أمه؟ يخاف عليها، يراها تنحدر إلى مستقبل مجهول.... ولا يريد أن يفكر في هذا الآن. علاقته بها مزيج من الشفقة والحب المكبوت. أما والده فهو معجب بنجاحاته ولا يحترم ضعفه أمام النساء ولا يفهمه!

أمسك بحقيبته وسار في طريقه إلى محطة القطار، إلى دمنهور إلى خالته...... . أسبوع ربما حتى يدبر مسكنًا في القاهرة حيث سيعمل خبيرًا ماليًّا في البنك البريطاني. يعمل كبريطاني في مصر.

خرج من القطار...... نزل السلم.

نظر حوله ... هذه هي دمنهور.. مزيج من المدنية والقروية.... على يمين المحطة عشش صغيرة ممتلئة بالناس... سيدة تغسل الملابس في حلة كبيرة، أخرى تصنع سندوتشات الجبن والكبدة التي لا يدري أحد من أين جاءت وإلى أين تذهب ورجل يرتدي فانلة قطنية ويجلس خارج عشته يصرخ في ثلاثة من أولاده وأطفال وجوههم ممتلئة بالذباب الذي يتجول من أعينهم لأفواههم وهو يشعر بالأمان التام. نظر حوله من جديد... على يسار المحطة باعة الطعام منتشرون على الرصيف.... الحاتي الشهير يضع الشواء خارج المحل ليغري المارة برائحة المقدونس والكفتة المجهولة الهوية والأبوين مثل الكبدة تمامًا والفطاطري الذي يصنع كل أنواع الفطائر والبيتزا المصرية الغارقة في الزيت وتعج بالسجق المصري والفلفل الرومي والطماطم التي تتأرجح ما بين العفن والكهولة. نظر حوله من جديد إلى محل الخرداوات الذي يبيع كل شيء.... حلل، أطقم صيني، روج وكحل، بنس وتوك، والكثير من القلوب الحمراء التي تتخذ أشكالًا عديدة من وسادات إلى دبة صغيرة... ابتسم في تهكم. يبدو أن الحب واللهب جزءان من هذه البلدة.

أشار بيده إلى التاكسي فتوقف... ركب ... نظر حوله إلى الشوارع المزدحمة إلى مبانٍ تحت التشطيب وعمارات قصيرة وأخرى كبيرة... إلى لافتات على شقق مختلفة لافتة طبيبة د.نهال عبد الله أخصائية الصحة العامة والتخسيس والسكر ود. على السلامي أستاذ في قسم الأنف والأذن والحنجرة....

أخذ نفسًا طويلًا... رائحة التاكسي مزيج من رائحة روث البهائم والجلد القديم الممزق... جلد مقاعد التاكسي.

دق باب بيت خالته، أمي.. وهو يحاول أن يستعيد شكل البيت في ذاكرته ولا يتذكر سوى الصالة الفسيحة والمفرش المغطى بالدانتلا الحمراء والتماثيل الرخيصة المتناثرة في كل مكان. يتذكر أيضًا الصالون المذهب والمقاعد العملاقة التى يشعر الإنسان أنها تكاد تبتلعه في أية لحظة.

نظر إلى خالته وهي جالسة على الطرف الأيمن للكنبة. بدت أصغر بكثير من أمه. كانت في بداية الأربعينيات. شعرها المموج يصرخ بهويتها.. وكأنه يعترف «أنا من دمنهور وصاحبتي تعصب رأسها كل يوم وتربط شعرها وتحاول كل المحاولات التخلص من تجاعيد شعرها ثم تأتي هذه التجعيدة الصغيرة فتفضحها». نظر لزوج خالته، كان يجلس على اليسار... مسافة تفصل بينه وبين زوجته. ملامحه كبيرة وعيناه مليئتان بالاستهتار والسخرية في آن واحد والسخرية تخص زوجته وشعر زوجته المموج! أو هكذا فهم أشرف.

دخل ابنها في فخر وجلس في منتصف الكنبة وكأنه هو زعيم هذا البيت وفخر هذا البيت. دخلت أنا -كنت حينذاك في العشرين- وقلت لأخي مسرعة وكأنني كلب يلهث وراء صاحبه: تشرب حاجة يا كريم؟ تاكل حاجة يا كريم؟

وعندما دخلت سالي! ظهر عليَّ التذمر كالعادة.... ولكن الكبرياء في عيني سالي التي لم تتم الثامنة عشرة أعجب أشرف ولم يمر سوى دقائق حتى عزم أمره على أنني مثال للتخلف والجهل وبدأ قصة كرهه لي منذ ذلك اليوم.

بدأ الجميع في الحديث معه دون توقف.... وهو ينظر لأعينهم ولا يفهم أهناك انبهار به؟ طمع فيه؟ احتقار له؟ أم الثلاثة معًا؟

قال زوج خالته، في لهجته الهادئة: أشرف هذا وقت المشاريع. بدأت أصدر القماش إلى الخارج والحمد لله، وأنت؟ هل ستعمل فقط في البنك؟ هل ستستقر هنا؟

انهالت الأسئلة عليه، وكأنه في معتقل لارتكابه جريمة في حق الإنسانية وتورطه في عدة شبكات ضد الديمقراطية وحرية الإنسان!

حاول الإجابة باقتضاب حتى قامت أمي وقالت في حماس: حاعملك عصير مانجة من بتاعي يا حبيبي!

هناك شيء واحد يكرهه أشرف... عصير المانجو المصنوع في بيت حائطه متسخ!

لا يتحمل هذا... حتى لو كان بيت خالته.... أولًا كيف تصنع خالته عصير المانجو؟ لا بد أنها تنقض على المانجو تعتصره بين أصابعها التي لا يريد أن يعرف ماذا كانت تفعل بها قبل ذلك، ثم تعتصرها وتخنقها حتى تتساقط قطرات العصير من يديها إلى الكوب، وربما خالته تلحس أصابعها بعد ذلك ... أو ربما تمسح أنفها، من يدري!

اقشعر جسده وهو ينظر إلى العصير....

حتى سمع همس ابنة خالته الصغيرة سالي: أشرف يا بختك يا أشرف.

نظر لها وهو يبتسم في فضول، فنظرت الفتاة المراهقة حولها لثوانٍ وكأنها تتأكد من خلو الغرفة ثم قالت: تعيش في بريطانيا... وفي بريطانيا لا يوجد أخي كريم ولا توجد أختي وفاء ولا يوجد من يقول «مفيش سينما يا سالي... ممنوع تيجي متأخرة يا سالي».

ابتسم لها في شيء من الخبث ثم قال: آه فهمت! كبرت يا بنت خالتي!

ظهر عليها الارتباك لحظات ثم قالت: نعم ولكن لو أخبرت وفاء ستخبر كريم ولو أخبرت كريم سيضربني ولو ضربني سأترك البيت... سأفعل

خرجت منه ضحكة : ولماذا تخبر وفاء كريم؟

- علشان وفاء معقدة وعندها أفكار غريبة.... أشرف لن تخبر وفاء.

- بالطبع لن أخبر وفاء.

- لماذا لا تتزوج وفاء؟ هي طيبة ومؤدبة جدًّا، مملة شوية بس....

قال في دهشة من جديد: أتزوجها وأنا لا أعرفها؟

همست وهي على وشك أن تبوح بشيء خطير: الكل يتوقع أن تتزوج وفاء. أمي تتمنى أن تتزوج وفاء... لو تزوجت وفاء فسأتخلص منها ...

قال في شيء من حب الاستطلاع: ووفاء؟

- قالت في لامبالاة: لا تطيقك. ولكن لا بأس في كل الأفلام القديمة أولاد العم لا يطيق أحدهما الآخر ثم يتزوجان ويقع كل منهما في حب الآخر....

قال وكأنه لم يسمع الجملة الأخيرة: الحمد لله.

- هي تظن أنك فاسق..

أمسكت سالي بفمها فجأة.. ماذا قالت! سيغضب منها الآن. ولكنه لم يغضب. نظر لها في فضول وقال: وفاء تظن أنني فاسق؟

قالت سالي مسرعة: وفاء عبيطة شوية وبتسمع كلام عمتي علية، وعمتي علية عندها تطير! عارف هي يعني ست جامدة ومتشددة قوي.

هز رأسه وكأنه يفهم قصدها ولكنه لم يكن يفهم شيئًا من كلام سالي ولم يكن يعرف من هي علية ولم يكن يريد أن يعرف.

قالت سالي من جديد: ولكنـك فقط متفتح وتستمتع بوقتك.. يا بختك يا أشرف يا ليتني ولدت في بريطانيا!

هنا دخلت أمي وبدأت مراسم التعذيب التي تؤدي عادة بالمجرم إلى الاعتراف. صاحت في دهشة: مشربتش العصير يا حبيبي والله العظيم لازم تشرب العصير تعدمني يا أشرف لو مشربتش العصير... أشرف.

عليه أن يستعمل كل الأسلحة المتاحة للتخلص من خالته خاصة إذا كان عليه أن يقضي معها أسبوعًا كاملًا.... وإذا كانت تنوي هي أن تزوجه ابنتها قبل انتهاء الأسبوع فعليه أن يستعمل المخزون الاحتياطي أيضًا وكل قوانين الطوارئ!

قال مسرعًا وهو يتجه إلى حقيبته: عندي شوية هدايا يا خالتي حاجة بسيطة.

قالت في تأثر: ليه تعبت نفسك يا حبيبي.

لم يجب. اتجه إلى الحقيبة وأخرج الهدايا التي اختارتها أمه... فقالت خالته مسرعة : أشرف طب اشرب العصير الأول وبعدين نتفرج على الهدايا.

دفس يده داخل الحقيبة وأخرج علبة مليئة بالفستق ومد يده بها لخالته فصمتت فجأة... دخلت أنا وفي يدي بصلة كبيرة كنت أنوي تقطيعها وقلت: ماما عايزة بصلة والا نص بس...

ثم نظرت للفستق فقالت سالي مسرعة: الله! ماما فستق!

أمسكت به أمي وكأنه غنيمتها قائلة: كل واحد ياخد شوية بس والباقي للضيوف.

قلت مسرعة: منين الفستق ده؟

مرة أخرى أثبت له أنني الغباء المجسم! كانت كل كلمة تخرج من فمي تثبت له هذا.

- من بريطانيا يا وفاء.

- لأ يعني منين؟ في بريطانيا مش بيزرعوا فستق مش كده!

رفع كتفه في لامبالاة ثم قال: مش عارف منين.

دخل كريم وأمسك بالعلبة من أمه، فأعطتها له في استسلام قائلة: متكلهاش لوحدك يا كيمو شوية لاخواتك زي ما علمتك كل حاجة لك ولاخواتك.

ثم استدارت لأشرف قائلة: شوف إحنا معندناش حكاية بنت وولد دي.

رفع طرف شفتيه في ابتسامة ساخرة وقال: طبعًا يا خالتي واضح.

نام ليلته مع كريم وهو يشعر بأرق وشيء من القرف من كل شيء وعليه أن يتحمل خالته وأولادها أسبوعًا كاملًا. في اليوم التالي كانت أمي قد دعت صديق العائلة الضابط الكبير مدحت العويسي لتفتخر أمامه بابن أختها وطبخت له محشي الكرنب الشهير الغارق في السمن وشوربة البط البلدي والذي تتفوق أمي في طبخه. وكانت تهتم اهتمامًا مبالغًا فيه بزوجة الضابط مدحت وتحقق لها كل رغباتها من عصائر وشاي وقهوة. جلست أمي في فخر وقالت : حبيبتي وفاء ساعدتني في الطبخ اليوم البنت دي شاطرة قوي ونشيطة وشاطرة في الجامعة كمان.

كان أشرف يتأمل كل شيء في استشراف وإعجاب وكأنه يشاهد فيلمًا بلغة لا يفهمها. وكان يحملق في أمي وهي تكاد تلهث أمام زوجة الضابط ويبتسم ابتسامة ساخرة متعبة.

تجاهل خالته وإيماءتها الصريحة وكان يتوقع في أية لحظة أن تسأله خالته عن موعد زواجه مني! وكان يتمنى انتهاء الأسبوع بأقصى سرعة!

وعزاؤه الوحيد أنني لم أكن أطيقه في البداية!

اصطدمت به يومًا وهو خارج من حجرة كريم وقلت في فضول: أشرف من أين جئت بهذا الفستق؟ هل هو من إسرائيل؟

أدهشته كما لم يدهشه شيء من قبل، قال في شيء من التهكم وهو يكتم ضحكاته: لماذا تظنين هذا يا وفاء؟

قلت في لامبالاة: لأن أوروبا تتعامل مع إسرائيل أكثر مما تتعامل مع الشرق الأوسط وإذا لم يكتب على الفستق شيء فهو من إسرائيل ومصنع خصيصًا للعرب حتى يقضي عليهم، أتفهم؟ ربما بداخله إشعاع ما أو ربما سم من نوع ما أو...

تنفس الصعداء وقال وهو يدخل حجرة الصالون: لا يا وفاء لا أعتقد أنهم يزرعون الفستق هناك... ربما هو من سورية أو إيران أو أمريكا أو الثلاثة معًا.... هل تكرهين إسرائيل يا وفاء؟

قلت مسرعة: لا لا أكره إسرائيـل. عندنا اتفاق ســـلام مع إسرائيل، أنا لا أكرهها أنا فقط أخافها؟

- لماذا؟

- لأني لا أثق بها.

كان يشعر بملل غريب من الحديث معي ولا يفهمني. كنت أمثل كل الأشياء التي لا يفهمها ولا يتقبلها.

وفي يوم حزين. حزين جدًّا. قابل أشرف لبنى ثابت وبدأت قصته معها. قصة أشرف صاحب حبات الفستق الغامضة مع لبنى الصحفية الشيوعية التي تنادي بالمساواة والحرية. وكانت قصته معي قد بدأت أيضًا وكنت أخاف عذاب القبر وعمتي علية وأمي. وكنت غبية وبسيطة ولكن خيالي كان وحشًا كاسرًا، لم أستطع يومًا القضاء عليه. كان خيالي ينقض عليَّ من حين إلى حين ويفترس قطعة من لحمي. خيالي! آه من خيالي ومن الحب. عندما تحب المرأة تفعل أشياء حمقاء وأشياء شديدة الخطورة أيضًا وربما أشياء لذيذة أيضًا... عندما تحب المرأة.. ربما لا تفعل شيئًا على الإطلاق ربما تستسلم لخيالها وتشعر بالذنب من الأحلام القذرة التي تسيطر عليها وكم شعرت بالذنب من خيالَاتي وأنا معه .. أشرف داود.

ولكنني كنت خائفة وغبية وخيالي كان يطرحني أرضًا، يفقدني الوعي من آن لآخر.

كان يومًا حزينًا يوم رأى لبنى وكان في دمنهور.

* * *

لم أكن أريد الخروج معه... ولا أدري لماذا أرغمتني والدتي على ذلك! بل أعرف أن والدتي تتمنى أن تجد لي عريسًا وهو بالذات.... أشرف.

ابتسم ابتسامة مصطنعة وهو ينظر إلي وأنا أمشي بجانبه متجهة معه ومع أخي إلى النادي في دمنهور. نظر إليَّ بفستاني الأحمر ذي الورود الزرقاء والشعر الأسود الذي يملأ وجهي... وعيني المكحلتين والروج الأحمر الذي يملأ شفتي.

كنت أبدو كعروس المولد التي رآها أمس في السوق.... مصطنعة ومنشية ومعدمة الحياة!

ولكنه لم يبد مشاعره، لم يبدها يومًا ولا يحب أن يسكب قلبه على الملأ.

قال: وفاء... كيف حال الجامعة؟ احكي لي عن جامعتك.. تدرسين الآثار إذن؟

هززت رأسي بالإيجاب ورموشي تتحرك بسرعة غريبة... كنت أشعر بخجل يقيد لساني فجأة. ولا أدري لماذا أخجل منه إذا لم أكن أحبه؟
ألا تخجل المرأة من الرجل الذي تحبه فقط؟ ثم أنا لا أحب الفاسقين وهو فاسق! وأنا أعرف هذا!

قلت وأنا أحاول التحرر من خجلي: في الجامعة نوعان من الطلبة.... بل ثلاثة أنواع.

- أول نوع؟

صاح أخي مسرعًا: هنا يا أشرف ادخل هنا.

تجاهله وهو يقول: أول نوع!

- النوع الطبيعي مثلي مثلًا!

ابتسم في تهكم وهو يدخل باب النادي الإقليمي: وماذا يفعل النوع الطبيعي؟

قلت في تلقائية وأنا أدخل من الباب: يذاكر.. يتعبد إلى الله.. يبر والديه ويبتعد عن كل ما هو مشبوه!

- وما هو المشبوه في مصر؟

- الرجال والسياسة.

ضحك ثم سار معي إلى الداخل وكريم قد بدأ في الثرثرة بلا توقف!

جلسنا معًا على طاولة بدا عليها أنها تحملت من قبلنا الآلاف من دون أن تئن... وبدا عليها أنها اليوم ستثور وتنهار! بدأت الطاولة بالارتجاف والانحناء اللاإرادي!

أرجل الطاولة تخرج صوتًا خطيرًا.... يحذر من يجلس عليها أن النهاية قريبة!

جلست كالابنة البارة والتلميذة النجيبة وأنا أشبك أصابعي وألقي بيدي على فخذي ولا أنطق! حتى نادى أخي على الجرسون: نريد شايًا وسحلبًا و... ماذا

تريد يا أشرف؟

- لم تسأل أختك؟

- أعرف أنها تريد شايًا.

ابتسم قائلًا: أريد قهوة.

ساد الصمت من جديد وهو يتوق إلى نهاية هذا اليوم وهذا الأسبوع!

قال كريم في حماس: أبي قال إنك جئت لتعمل.. تبدأ مشروعًا جديدًا.. مشروعًا بريطانيًّا في مصر.. أبي يتمنى أن يصدر أقمشة إلى بريطانيا.. هل يمكن ذلك؟

- كل شيء ممكن يا كريم.

قال كريم في نفس حماسه: وأنت بالطبع ستساعدنا.

أدار وجهه إلى الطاولة المجاورة وهو يقول: بالطبع.

وكان يعرف أنه بالنسبة لخالته سندباد القادم بكنوز عظيمة وقدرة كل السحرة والأسود!

- كم ستبقى هنا يا أشرف؟

- عامًا ربما... لا أدري.

التقت عيناه بعينيها.... سمع صوتها... القادم من الطاولة المجاورة... صوت قوي وسميك... كانت تصيح وتأخذ نفسًا من سيجارتها في نفس الوقت لا يدري كيف: هذا موضوعي أنا! وأريد اسمي عليه هل تفهم؟ علي أنا لا آبَهُ بأحد أنت تعرفني يا علي!

قال الرجل الجالس أمامها في ارتباك: اهدئي يا لبنى الناس بتتفرج عليك!

- موضوعي لن يكتب أحد اسمه عليه سواي...

ثم صرخت : موضوعي! كفاكم سرقة!

تفحصتها عينا أشرف في دهشة وإعجاب.... ملامحها حادة ضئيلة وقصيرة... وجهها أسمر وشعرها خشن مربوط ذيل حصان... ترتدي بنطلونًا ضيقًا. عيناها واسعتان ومتحديتان يسيطران على كل وجهها! وعظام وجهها عريضة واضحة وكأنها صورة مرسومة لفنان شعبي!

أصابع يديها رفيعة وتتحرك بسرعة غريبة من «الطقطوقة» إلى فمها!

لم تمر دقائق حتى تدخل كريم وأشرف والكثير من الناس.. ولم تمر دقائق حتى حزم أشرف أمره، يريدها.. لبنى هذه التي تصارع كل من حولها لسبب

ما لا يعرفه وللحق لم يعرفه يومًا ولم يفهمه.. يريدها!

ربت بيده على جيب بنطلونه.. هنا رقمها في الجريدة!

أدار وجهه لي ثم قال فجأة: والنوع الثاني؟

- نعم!

- النوع الثاني من النساء.

قلت في امتعاض: مثل هذه السيدة... «مسترجل».. نوع يظن نفسه رجلًا يريد تغيير كل شيء، نوع يتعارك مع دبان وشه! أراهن أنها تعمل في السياسة أيضًا... تعرف في الجامعة هناك مظاهرات طوال الوقت... لا أدري ماذا يريدون، فقط يحتجون على أي شيء وكل شيء.

تعلقت عيناه بلبنى من جديد وهي تتجه إلى الباب في ثقة... فتح عينيه في انبهار... لم ير امرأة بهذه القوة قط، لا في بريطانيا ولا في أي بلد آخر.

مرة أخرى شعر برغبة جامحة أن يذيبها بداخله. هدف... يريد تحقيقه....

لبنى ثابت.... الصحفية المصرية.... لم ينس الاسم قط.

قال فجأة وكأنه تذكر عنوان بيته بعد أن نسيه عشر سنوات: ما النوع الثالث يا وفاء؟

بلعت ريقي وقلت في ازدراء: البنات الفاسدة اللي بتعيش في بيت الطالبات... إنت عارف ليه بابا لم يوافق أن أعيش في بيت الطالبات؟

- ليه؟

- أنت لا تعرف شيئًا... بعض الفتيات هناك....

صمتُّ في خجل.

- ماذا يفعلن يا وفاء؟

- لا أستطيع أن أخبرك.

ابتسم... وكان عليه أن يعترف لنفسه أنني مسلية إلى درجة كبيرة لم يتوقعها!

قال من جديد: ماذا يفعلن يا وفاء؟ يصادقن الرجال؟

هززت رأسي بالإيجاب.

- و ماذا أيضًا؟

قلت دون أن أنظر إليه: ويركبن السيارات مع الرجال.

ضحك: حقًّا؟

قلت في حماس: نعم. صدقني... مثل بنات الغرب وبعضهن يدخن كالفتاة التي رأيناها اليوم... أشرف لا تظن كل المصريات شريفات.... بعضهن بسبب سوء التربية والانحلال الأخلاقي يفعلن العجب!

- ماذا يفعلن أيضًا؟

رفعت رأسي في حيرة: لا أدري. كل هذا لا يكفي؟

- عندك حق هذا يكفي.

* * *

- 2 -

تنفس في ارتياح وهو يلقي بجسده على السريرالكبير في شقته التي استأجرها في حي الزمالك.

كان هذا الأسبوع أسبوعًا صعبًا ولكنه مر وحياته في مصر ستبدأ من الآن.... غدًا سيبدأ العمل وغدًا سيطلب شركات التأجير المسئولة عن تأجير البيتين اللذين اشتراهما في لندن بقرض من البنك بضمان عمله ليؤجرهما، ويومًا ما يبيعهما... إحدى صفقاته العظيمة.... فقد خلق بعقل فذ.. عقل مغناطيسي يجذب المال... وما أجمل المال! يجعل من الرجل ساحرًا وأميرًا بل ملكًا ... إذا كان عندك مال فلا تحتاج عصًا سحرية ولا مصباح أشرف الدين ولا تحتاج حتى وساطة. وأشرف محظوظ عنده المال والوسامة.... بالطبع
لم يهتم بصحته في الأيام الماضية ولم يذهب إلى النادي ليمارس الرياضة ويبني عضلات ذراعيه وصدره ولكنه سيعوض كل هذا. وبالطبع طعام خالته ربما يصيبه بالسمنة ولكنه سيخرج بعد دقائق ليجري على شاطئ النيل.... فهو يحب أن يعمل كثيرًا ويلهو كثيرًا... ابتسم لنفسه وهو ينظر إلى بنطلونه الجينز... عليه أن يشتري بنطلون جينز آخر قريبًا.. من المؤكد أن هناك توكيلًا للافيز في مصر.... فهو يعشق القمصان البيضاء والبنطلونات الجينز وخاصة جينز لافيز! والآن سيذهب إلى الجيم!!

وغدًا ... سيتصل بلبنى ثابت.. لم ينسها في زحام أفكاره... من هي إذن؟

لم يمر الكثير حتى كان أشرف ينتمي إلى ما أسماه حلقة لبنى شبه الثقافية شبه السياسية والتي تتكون من أربعة صحفيين بمن فيهم لبنى يلتقون يوميًّا بعد العمل في أحد المقاهي ليتشاجروا أحيانًا ويتناقشوا أحيانًا وغالبًا ما يفشلون في إقناع بعضهم بعضًا بأي شيء... وكان ما يميزهم جميعًا بالنسبة لأشرف هو حالة من الغضب والطموح والنشاط المحبط وربما حب مصر.... لا يدري... هو لم يشعر قط بالغضب من أجل قضية عامة... وعندما يتناقش مع أحد يحب أن يقنعه برأيه أو يغلق النقاش، وهؤلاء يتناقشون بلا توقف ولا ينجح أحد في إقناع الآخر بأي شيء.! وهو .... لا يدري ماذا جاء به إلى حلقة لبنى سوى رغبته الشديدة فيها هي كامرأة. لم يكن يومًا صبورًا ولم

يكن يومًا يهتم بالسياسة ولكنه يشعر بأنه خاض حربًا غير معلنة مع لبنى وأفكارها ولم يمر الكثير حتى اكتشف أنها شيوعية فأرادها أكثر.

قال أحدهم في إحدى حلقات لبنى: الديمقراطية هي الحل. نحتاج إلى أن نمنح الشعب الثقة التى انتزعت منه من آلاف السنين.

استطرد آخر: نحتاج إلى أن نرفع الوصاية عن الشعب.

قالت لبنى في هدوء مصطنع: لكل بلد النظام الذي يناسبه وفي مصر طبقة غنية إلى درجة استفزازية يجب القضاء عليها وإقامة العدالة الاجتماعية التي تكلمنا عنها كثيرًا في الماضي ولم نحاول تحقيقها.

- يا لبنى.. الشيوعية مستحيلة في بلد يقدس الأديان سواء المسيحية أو الإسلام.

- الشيوعية هي فكر يمكن تطبيقه في كل مكان وزمان ويمكن أيضًا وضعها في إطار ديني وتشكيلها حسب حاجات مجتمعنا.

- هل كنا نريد سلامًا مع إسرائيل؟

سكت الجميع.

ثم قال علي وكان يبدو هادئًا نوعًا ما: نعم، ولكن ليس هذا الوقت المناسب. كان سلامًا مفاجئًا كالأفراح المفاجئة، الكل يغضب لأن الدعوة جاءت متأخرة ولأنه لم يكن أول المدعوين والكل يقاطع الفرح.

علت الضحكات ثم قال آخر:كنا نحتاج إلى السلام... السلام أفضل بكثير من الحروب يا لبنى.

- قالت لبنى من جديد: حربنا مع أنفسنا، نحتاج إلى العدالة.

بدأ أشرف يسأم النقاش فقال في ملل:

- ماذا تريدين يا لبنى؟

- أريد الكثير أريد العدالة والمساواة و...

قاطعها: هذه كلمات كبيرة فقدت معناها منذ زمن... ما هي خططك السياسية؟ ما هذا الذي تريدين تحقيقه؟ تتكلمين عن الأفكار المجردة وهذا خطر... كل الطغاة والمتطرفين يتكلمون عن أفكار مجردة... ويحاولون تحقيقها بطرق عملية قاسية تعتمد على ضحايا كثيرين.

قال علي فجأة:وأنت.. ما رأيك؟ ما الذي تحتاج إليه مصر الآن؟

قال أشرف في ثقة:المال.

نظرت له لبنى في تهكم ثم قالت: ألا تعرف شيئًا يسمى الكرامة.... مصر كانت لديها كرامة وكبرياء أما الآن...

قال في ثقة: الكرامة تأتي بالمال... كما أن مفهوم الكرامة في العالم العربي مختلف عن مفهوم الكرامة في الغرب. لا يوجد كرامة بين الشعوب يوجد مصالح وأموال... كل بلاد البترول لديها الآن نفوذ أكبر على دول الغرب بسبب المال...

استمر النقاش ساعات وهو ينظر إلى ساعته من حين إلى حين و...

بعد برهة كانت معه في سيارته وقالت في حدة وقد بدأت آراؤه تقلقها: اسمع يا أشرف... إذا كنت تريد أن نبقى أصدقاء...

قاطعها في حزم:لا، لا أريد أن نبقى أصدقاء!

نظرت له في دهشة فابتسم قائلًا: لا تحبين آرائي؟ لا يهم أنا لا أريدك صديقة يا لبنى.

نظرت له في فضول ثم قالت: ماذا تريد؟

ابتسم وهو يفتح لها باب السيارة أمام الجريدة: تعرفين ماذا أريد.

قالت في دهشة: لا، لا أعرف.

- هل يمكنني أن أراك غدًا؟...

- إنك تراني منذ أسبوعين كل يوم.

- نعم. ولكنني مللت هذه المناقشات! هل يمكنني أن أراك في مكان آخر؟...

سكت برهة ثم قال في حماس وكأن الفكرة قد طرأت له للتو: لماذا لا تزورينني في بيتي... أعرف أن في مصر هذا يعني الكثير ولكنني لم أعش في مصر وهذا بالنسبة لي لا يعني شيئًا. فقط صديقة كما تقولين تزور صديقًا... ما رأيك؟

ضاقت عيناها وكأنها ستنهال عليه بالضرب ثم قالت في ثقة: ماشي! إمتى؟

تنفس في ارتياح ثم قال: الآن لو أردت.

* * *

جلست لبنى القرفصاء على الأريكة الكبيرة في حجرة المعيشة. كانت أريكة برونزية فخمة... بدت قصيرة وصغيرة وعظام وجهها العريضة تسيطر على كل ملامحها ثم قالت في فضول: من أنت؟!

ابتسم وهو يجلس على مقعد أمامها وقال: لا أدري...

- إقطاعي ورأسمالي.

- كيف عرفت هذا؟

- من ملابسك.. من ثلاجتك الممتلئة بأنواع الجبن الغالية ومن الفستق الذي تحمله في حقيبتك.

قال في دهشة ممزوجة بالإعجاب: فتحت ثلاجتي؟ وحقيبتي؟

- بالطبع فتحت ثلاجتك. مهمتي أن أفتح قلوب الناس أيضًا يا أشرف الرأسمالي... اسمع.. تكلم معي عن رئيسة وزرائكم مارجريت تاتشر هذه السيدة خطر على الشيوعية وعلى الإنسانية.

قال وهو يبتسم: تريد النهوض بالاقتصاد.

- جاءت لتزيد الغني غنًى وتزيد الفقير فقرًا.

- إذا لم يكن هناك أغنياء فلن يعيش الفقراء حياة أسعد؛ فعندما يوجد الغني فـإنه يستطيع أن يوفر حياة أفضل للفقير.

- هذا كلام حزب المحافظين البريطاني، أما أنا فأومن بالعدالة الاجتماعية.

مرة أخرى كان يشعر بملل من كلامها ومعتقداتها ولكن إعجابه بها لم يتأثر!

ثم قام وهو يتجه إلى المطبخ: تريدين شايًا؟

أخرجت سيجارة من علبة السجائر وقالت: قهوة، أريد قهوة سادة وثقيلة... أحتاج إلى قهوة ثقيلة وأنا أتعامل معك. ماذا تريد مني يا أشرف مع كل هذا الاختلاف بيننا؟

كان يود أن يقول: أريدك أنت! ولكنه ابتسم في دفء ولم يجب.

قامت.. جرت إلى المطبخ وقالت وهي تهتز كعادتها من رأسها حتى قدميها: مثلًا نظام الخصخصة سيقضي على العدالة... إنها طاغية هذه السيدة... كنا نظن أن في بلادكم ديمقراطية ولكنها ديمقراطية الغني وقهر الفقير. أنت تعرف موقفها من النقابات، تعاملهم وكأنهم ذبابة وقعت في طبق شوربتها!

ضحك قائلًا: تعرفين كل شيء عن سياسة بريطانيا، ولكن لماذا دائمًا تتكلمين معي على أنني بريطاني؟

تنهدت قائلة وهي تمسك كنكة القهوة من يده وتضيف إليها بعض القهوة ثم تضعها في فنجان: ألست إنجليزيًّا... لا أريد أن أفكر فيك كمصري إقطاعي وإلا كرهتك ولا أريد أن أكرهك.

نظر لها وهي تقلب القهوة... تشرب قهوة نصفها لم يلمس النار... وكأنه تحدٍّ آخر.

ذهبت إلى حيث الأريكة البرونزية وغاصت بداخلها من جديد.

أخذت أنفاسًا متصلة من سيجارتها ثم ابتلعت قهوتها قائلة: الآن يمكنني أن أحتسي كأسًا واحدة من النبيذ الأبيض الفرنسي، هل عندك نبيذ أبيض فرنسي؟

فتح عينيه في دهشة : معذرة؟

- بالطبع تشرب الخمر أليس كذلك؟ ماذا كنت تفعل في المدرسة الداخلية في بريطانيا سوى تذوق كل أنواع الخمر وتجربة كل أنواع النساء.

- هذا ما تظنين أنني فعلت في المدرسة؟

- عندك نبيذ؟

هز رأسه بالإيجاب.

أمسكت بالكأس وساقاها تهتزان ثم شربتها كلها في أقل من دقيقة فقال مسرعًا: لا يمكنك أن تشربي النبيذ هكذا...

نظرت إليه في عدم ثقة: كيف إذن؟

نظر لها هنيهة ثم أتى بطبق الفستق وأعطاها واحدة ووضع النبيذ في بطء في كأسها وهمس: في بطء يا لبنى استمتعي بكل رشفة وكلي معه الفستق حتى يذوب طعمه الحلو مع طعم الفستق المالح.

بلعت ريقها في توتر وقامت مسرعة وهي تقول: علي أن أعود إلى بيتي الآن.

قال في براءة: لماذا؟... أنت تعرفين كما قلنا يمكن للرجل والمرأة أن يجتمعا في مكان واحد دون أن يقعا فيما تسميه الخطيئة.

ابتسمت وقالت وهي تجري ناحية الباب: فقط لا أحب أن تلقي بي في خطيئة الرفاهية... الرفاهية داء ليس له دواء. مع السلامة يا أشرف.

قال في جدية: انتظري يا لبنى.

اقترب منها، أمسك بذقنها وقرب شفتيه من شفتيها.. كانت لمسته رقيقة رقة لم تعرفها قط. ولكنه لم يقبلها في شفتيها، قبل عينيها قبلة طويلة وهمس في رقة: مع السلامة.

خرجت من بيته في خطوات نارية ومسرعة.

ابتسم ... شعر بنشوة عارمة... هذه المرأة... بماذا يصفها؟ كل هذه الثقافة والسحر والقوة والمبادئ... مختلفة عن صديقاته في بريطانيا لا تفكر في حقوق المرأة ومشاعر المرأة وحب المرأة. تفكر في الرجل والمرأة، في تغيير المجتمع في كل من حولها.

* * *

في تلك الأثناء كنت أنا أنسج قصة حبي له في خيالي الشقي العنيد عناد الثوار والغائرين.

أغلقت باب حجرتي الممتلئة بالملابس والأقمشة وشعرت بخفقات قلبي ترجني.. تحرك جسدي كله.... كم أحبه وأحببته في لحظات. اليوم سيأتي وكم افتقدته قضيت ساعات أستمع إلى عبد الحليم وكل آهات الشوق والهجر ولكن الآهات لا تحرك كل خلجاتي.... خيالي يفعل هذا. أراه في خيالي أرى ابن خالتي خطيبًا.. أراه يحاول تقبيلي لأول مرة ويرتجف جسدي وأنا أشعر به يضمني فأحاول أن أتخلص من ذراعيه فيضمني في قوة أكثر وهو متجهم... قاسٍ قسوة الطغاة المغامرين.

كنت أحلم وأكـره نفسي بعد ذلك. أكره أحـلامي وأخجل من خيـالي ولا أعرف كيف يصور لي كل هذه الأشياء المخلة بالآداب! أنا مثال الأدب والعقل، أنا التي أسيطر على هفوات أختي سالي ومراهقتها، أنا التي تعلمت من والدتي أن عفة الفتاة هي سلاحها الوحيد وثراؤها وقيمتها.

يومًا سيأتي للزواج مني. الكل يشعر بهذا بمن فيهم أمي وأنا أنتظر ذلك اليوم.

واليوم سيتناول الغداء معنا وسأطبخ له وأتجمل وأنتظره.

سمعت صياح أمي: شيلي الغطا بتاع الصالون.

وكانت أمي مهووسة بالصالون المذهب وكان لا بد للصالون من غطاء عندما لا يأتي شخص مهم للزيارة. ولم أكن وقتها قد لاحظت الاهتمام المضني بالتفاصيل الذي يبتلع عقل كل مصري. كلنا نعشق التفاصيل.. حتى في الكلمات، كلنا نقرأ ما بين الحروف. واليوم أشرف قادم و لا بد أن نخلع الغطاء الباهت الأصفر عن الصالون المذهب. صالون زواج أمي وفخر أبي.

دخلت إلى المطبخ وبدأت أعد السلاطة وسمعت ضحكة أبي الساخرة: منال.. حتعكي النهارده! اطبخي حاجة زي الناس بطلي شغل العك ده.. الراجل جاي من القاهرة.. مسافر.

قالت أمي في استنكار: هو بيحب أكلي.

ابتسم أبي في سخرية: محدش بيحب أكلك يا منال! بس حنعمل إيه؟! لازم ناكل.

ثم بدأ في الضحك. لم تشاركه أمي الضحكات. ولم أكن أهتم بكل هذا كنت فقط أريد أن أراه.

* * *

مرت ثلاثة أشهر وهو يحاول أن يغوي لبنى ولبنى لا تستجيب.... شعر بأنها حرب شنت عليه منها ! لعبة غريبة تلعبها معه ولا يفهمها... ربما هي حرب باردة مثل حرب الاتحاد السوفيتي والغرب الديمقراطي. ابتسم لنفسه وهو يقطع الثوم ليضعه على المكرونة. اليوم سيحاول من جديد مع لبنى. ستأتي اليوم وسيحاول من جديد.

و سيطبخ لها العشاء ويضعه على المائدة ويقدم لها الورود والماس إن أرادت وسوف يستمعان إلى موسيقى شهرزاد ثم دون خوان ثم يطفئ كل الأضواء ولا يرى سوى ضوء عينيها الواسعتين.

دقت على الباب، فتح لها وهو يقول في رقة: حبيبتي.

نظرت له في شيء من التهكم والتوعد ثم دخلت مهرولة كعادتها... تتفحص كل شيء بعينيها ويديها وأنفها.... الثلاجة، خزانات المطبخ، الطعام .... ثم نظـرت إلى حجـرة الطعام وإلى المكرونة بالجمبري والسيمون الذي لا تعرف ما هو ومن أين أتى أشرف به وقالت وهي تجلس: أنت طبخت لي؟

هز رأسه بالإيجاب وهو يجلس أمامها ثم قال: كنت أفكر فيك طوال اليوم ولا أفكر في غيرك ولا أفكر في أي شيء آخر لا في عملي ولا عائلتي ولا حتى نفسي.

قالت في تهكم: أشرف لا تقل هذا الكلام، كله كذب وأنا أعرف.

وقبل أن ينطق قالت هي: ولكنك غريب ومختلف، رقيق وهادئ وتختلف عن أبي كل الاختلاف. لم أر أبي يطبخ العشاء لأمي ولم أره حتى يتكلم مع أمي كان دائمًا ينهرها وهي تعتذر. أحيانًا فقط أحيانًا كان يضربها وكانت تبكي وتصرخ.. مسكين أبي.. كل هذا الحمل.. ستة أطفال وهو «ساعي» في المحافظة، ماذا تتوقع؟

لم يكن يريد أن يسمع مآسي لبنى ولا قصة حياة لبنى، ولم يتعاطف مع والدها ولا والدتها ولا أحد سواها هي. هدف مثل كل أهدافه وهو دائمًا يحقق

أهدافه.

أكلت بسرعة كعادتها ثم جلست على الأريكة الكبيرة في حجرة المعيشة.... جلس بجانبها ولم ينطق... اقترب منها ... نظر إلى عينيها من جديد... رأى حولًا طفيفًا في عينيها اللتين تنظران إليه وتركزان على عينيه..

همست لأول مرة في رقة: لقد قبلت أن آتي لك في بيتك.

قال: هذه ليست أول مرة يا لبنى وهذا لا يعني شيئًا... لا يعني أنه سيحدث أي شيء بيننا.. صح؟

هزت رأسها بالإيجاب.

أدارت عينيها عنه... نظرت حولها ثم قامت وكأنها في حيرة من أمرها. دارت حول نفسها كما تفعل دائمًا ثم بدأت عيناها تتحركان في كل اتجاه ورجلاها تهتزان كعادتهما.

قالت في حماسها وطاقتها اللذين اعتادهما: نشرب شايًا ما رأيك؟ أنا سأعده!

جرت إلى المطبخ وبدأت تعده وهو جالس على الأريكة... ثم استلقى على الأريكة أراح رأسه عليها وأغمض عينيه.

صاحت من المطبخ: أنت إقطاعي يا أشرف ومتعجرف وأتيت من بلاد متعجرفة وطماعة ورأسمالية.

ابتسم وهمس: مجنونة.

صاحت من المطبخ من جديد: ماذا قلت؟

قال بصوت عال: لا شيء.... كنت أقول إنني لا أفهم لماذا تؤمنين بالنظام الشيوعي.... أعتقد أنه نظام لا يختلف كثيرًا عن النظام الرأسمالي. فقط شريحة المتميزين مختلفة... في كل مجتمع شريحة متميزة وفي مصر الآن هي شريحة رجال الأعمال، وفي بريطانيا هي أيضًا شريحة رجال الأعمال وأصحاب الممتلكات. لبنى، بدلًا من أن تحقدي على هذه الشريحة فقط حاولي الوصول إليها ويمكنني أن أساعدك بل أغمضي عينيك وافتحيهما وسوف تجدين نفسك في شريحة أخرى!

قالت في غضب: أنا لست من المتميزين اللصوص يا أشرف، وأنا لست غانية ولا أريد منك شيئًا!

لم ينطق. جاءت بالشاي وجلست على طرف الأريكة نظرت إليه لثوانٍ ثم قالت في مرارة: الغني مليء بالذنوب.

قال في رقة وهو يلمس أطراف شعرها الأكرت بأصابعه: وماذا في ذلك؟ الغني مليء بالذنوب ولكنه يستمتع بكل شيء.

أمسكت بكوب الشاي في عصبية: بدأت أكرهك يا أشرف.

اقترب منها وهمس: لن تفعلي هذا أبدًا يا لبنى ثابت الصحفية الشيوعية.

اعتدل في جلسته واقترب منها.

قبل وجنتها قبلة رقيقة وهمس: أبدًا.

اهتزت وقالت في حيرة وعصبية: جئت لتستغل أهل بلدك يا أشرف! ما الفرق بينك وبين رئيسة وزراء بريطانيا؟! تستغل فقراء بلدك... تبيع لهم الفستق وتشتري منهم القمح... لا أحد يعيش بالفستق يا أشرف.

بدأ يداعب خصلات شعرها وقال في نفس رقته التي بدأت تدمنها: لبنى، الفستق لذيذ... أنت كحبات الفستق مقرمشة، صغيرة ومملحة.

لم تنطق. ساد الصمت برهة وأصابعه لم تزل تداعب شعرها، ثم قالت فجأة:

- تريدني؟!

نظر لها في دهشة وقال في ثقة : بالطبع أريدك... إنك أجمل امرأة رأتها عيني.

- كاذب.

- صدقيني يا لبنى أنا لا أكذب أبدًا.

- ولكنك جئت من بلاد النفاق والاحتلال!

- أنا مصري مثلك تمامًا.

- ولكنك تنتمي إلى حزب المحافظين البريطاني.

قام وقال في جدية: سأصبح شيوعيًّا من الآن من هذه اللحظة! ماذا أفعل لأثبت لك حسن نيتي.. الآن سأطلب من البواب أن ينقل أشياءه ويقيم معي هنا في بيتي!

صاحت في عصبية وهي تقوم: تسخر مني يا أشرف! هل تعرف معنى الفقر؟.. إنك لا تشقى وتتعب كل يوم لتربي أخاك وتصرف على أمك... إنك لا تعرف شيئًا سوى جمع المال ومعاشرة النساء.... منافق وطماع لا أدري لماذا جئت هنا.... لماذا أتكلم معك! لا يوجد عدل في هذا العالم!

اتجهت إلى الباب.. قبل أن ينطق فتحته وخرجت!

قال في غيظ لنفسه: في داهية يا لبنى!

لقد أخذ كفايته من لبنى وصراعات لبنى وهجمات لبنى غير المتوقعة. فلينسَ لبنى بعض الوقت! من اليوم.. لم يعتد الاشتياق لامرأة كل هذا الاشتياق ولا يحب السهر والدموع ولا يعرف بالضبط ماذا تريد لبنى... لو أخبرته الآن ماذا تريد كان سينفذه على الفور، لو استطاع.

دخل إلى حجرته وهو ينفخ في غيظ. الله يخرب بيت لبنى وبيت الفقر! وماذا يعنيه لو كان الشعب كله فقيرًا هو ليس السبب في فقرهم!

خرج من حجرة النوم وارتمى على الأريكة من جديد.

لم يقابل امرأة مثلها قط، لم يشعر بهذا الإحباط قط، ولم يكره الشيوعية قط، كما كرهها اليوم.

سمع دقًّا على الباب.

قام في تكاسل... البواب بالطبع....

فتح عينيه في دهشة وفرح غريب.

توقف لسانه وهو ينظر إليها كان يسند ذراعه إلى الباب وكأنه يمنع كل الناس من الدخول.

- لبنى...... لم ترحلي؟

أمسكت بذراعه وهي تنظر له في حيرة ثم قالت: هل يمكنني أن أدخل؟

ضحك قائلًا وهو يزيح ذراعه: تملكين بيتي وقلبي.

اقتربت منه... وضعت يدها على ذراعه من جديد.... أمسكت ذراعه في قوة وكأنها على وشك القبض عليه وهمست في شوق: أنا أحبك يا أشرف.

* * *

لا يفهم النساء. اليوم شعر بأنه لا يفهم النساء. كان يظنها تحررت منه.. كان يظنها تعشق الصراع والحرية كان.... ثم استسلمت له كاستسلام أوراق الأشجار للخريف... استسلمت وأغمضت عينيها ولم تتشاجر ولا حتى طلبت منه أي شيء. فقط استسلمت ولم يشعر بهذا العشق لامرأة قط. هزه استسلامها.. حركه.. دفع به إلى حافة الحنو. وجرف من قلبه مشاعر لم يعتدها ولم يعرفها.

وضعت رأسها على صدره وهو ممدد على الأريكة وقالت في يأس: عليَّ أن أرحل الآن يا أشرف.

همس وهو يداعب جبهتها بأصابعه: هل يمكنك أن تنتظري حتى الصباح!

انتفضت من مكانها وقالت وهي تهرول كعادتها إلى مكان ما: لا.. لا يمكنني هذا، لا تنس أننا في مصر.

- أعرف.

جلست من جديد وقالت فجأة: لم تسألني.

- عن ماذا؟

- عن أول رجل في حياتي.

- لا يهمني من هو.

قالت وهي تشعل سيجارتها: كان زميلي.. صحفي مثلي.

قال وهو يدَّعي اللامبالاة: لا أريد أن أعرف.

- كنت تظنني عذراء!

في الواقع ...... أشرف كان تارة يظنها عذراء وتارة لا، ولم يصل عقله إلى قرار!

ابتسم قائلًا: لا يهمني يا لبنى.

قالت في تصميم: ولكنك تريد أن تعرف. كنت تتوقع أن أكون عذراء... كنت تتوقع مني كفتاة مصرية أن أكون عذراء أو غانية!

قال في رقة: لبنى... لن نتشاجر الآن!

قالت وكأنها أمام محكمة النقد العليا وتدافع عن نفسها بلا أية فائدة: أنا لست غانية يا أشرف... هل طلبت منك شيئًا، لو كنت غانية كنت سأطلب منك شيئًا أي شيء.

- لبنى.

أكملت وكأنها لم تسمعه، في شيء من الهستيرية: أنا لست بنتًا صايعة. أنا أحبك... أنا..

قاطعها: لبنى اسمعيني.

أكملت من جديد: استسلمت لك لأني أحبك، هل تفهم؟ هناك غانيات وهناك متحررات تحررن من...

قاطعها وهو يمسك برأسها ويوجهها ناحيته ويصيح: لبنى... اسمعيني... أنا لم أتربَّ في مصر ولا أظن إنك صايعة ولا آبَهُ بماضيك، فقط بحاضرك ولا أعتقد أن المرأة تستسلم للرجل مع أنني شعرت بأنك استسلمت لي

ولكن أتمنى في المستقبل ألا تهبي نفسك لي بل نهب بعضنا لبعض... هل تفهمين؟

هزت رأسها بالنفي ثم قالت: هل ستسألني لماذا تركني؟

قال في شيء من العصبية: لأنه أحمق!

- لا... كان عليه أن يتركني.

- مات!

- دخل المعتقل.. كان صحفيًّا عراقيًّا.

ابتسم في تهكم: تحبين المشاكل أليس كذلك؟ أما زال حيًّا؟

- رأيته منذ سنة.... إنسان آخر لا أعرفه.

- تعذب!

- لا أعرف.. هو فقط مختلف.. لا أدري.. قضى ثلاث سنوات بعيدًا عني... لم أكن أعرف عنه شيئًا ولم أتوقع أن أراه.... عندما عاد كنت قد أقنعت نفسي أنه مات.

همست فجأة في خوف: أشرف..

- الرأسمالي لا يدخل السجن إلا في الاتحاد السوفيتي ربما ولكننا في مصر! لا تقلقي علي... تحبينه؟

قالت في قوة: أحبك أنت.

قال في فضول: وهو .... لا تحبينه حتى بعض الشيء!

قامت وهي تتجه إلى الباب: أحبك أنت فقط وأخشاك وأحتقر غناك وأكره الفستق وهيا لتوصلني إلى بيتي في إمبابة.... هل تعرف أين إمبابة؟

ابتسم وهو يسير بجانبها: لا، ولكنها مكان عظيم إذا كان قد أخرج مقاتلين مثلك!

* * *

وبدأت أقضي وقتًا طويلًا في حجرتي.... مستلقية على سريري أحلم وعندما تنادي علي والدتي وتوقظني من الحلم الجميل أكون أنا على حافة البكاء.

مرة أخرى أحلم به زوجًا لي... أحلم بليلة العرس وهو يقبلني لأول مرة وأنا خجولة وهو يطمئنني ولا أطمئن وأقاومه فينقض علي بقسوة وقوة ورقة متنكرة وأحاربه ويهزمني.

أحلم وأشعر بلهفته ولمساته رقيقًا معي.... قويًّا معي.... يحميني ويرويني.

حلم أحبه كثيرًا... عندما يتشاجر معي... يغار علي من رجل آخر ويأمرني ألا أترك البيت وأن أتوقف عن الذهاب إلى الجامعة فأحتد عليه فيلوي معصمي وأوافق وأنا حزينة فيذيبني بين ذراعيه وينتصر علي من جديد يهزمني ويضمني في قوة ويسيطر علي تمامًا حتى أعود ضلعًا من أضلعه أحيا معه وأعتمد عليه كليًّا وهو لا يحيا لحظة بدوني.

كنت أريده قاسيًا قويًّا ولم أكن أحب الرجل الرقيق. كنت أريده عنيفًا عصبيًّا. كنت أريده غيورًا ومسيطرًا ومهووسًا بي.

فليذبني فليصفعني فليأمرني فليحبسني فليأخذني بقسوة وعنف وسوف أستسلم له على مضض ثم أستسلم له من أعماق قلبي.

أنتظر اليوم الذي يأتي فيه كل أسبوع، أحيانًا كل شهر أروي عيني منه حتى أعود إلى أحلامي من جديد.... وكنت أحلم كثيرًا هذه الأيام.... أدَّعي النوم وأغوص في أحلام اليقظة.... اليوم شعرت بأنه قادم... قريبًا سيعترف بحبه وبالطبع لن يختار عاهرة مثل لبنى ليتزوجها عندما يريد الرجل الزواج يتزوج من فتاة مثلي... سأتجمل اليوم وأنتظر.

و كأن يده تمر على ذراعي فتشعل نارًا في جسدي لم أكن أدري أنها بداخلي وشوقًا مخيفًا ولذيذًا!

و عندما جاء لم يكن وحده. اليوم جاء مع لبنى ثابت... لا يهم لا أغار عليه من عاهرة... والدتي تقول إن الرجل دائمًا له احتياجات لا تفهمها
إلا العاهرات ولكن عندما يريد الزواج يتزوج من فتاة بريئة طيبة ومن عائلة محترمة وينسى العاهرات. أنا لا أغار من لبنى... لبنى لا شيء... بل أريد أن أراها... أريد أن أراها حتى لا أصبح مثلها رخيصة، سوقية ... رجل متخفٍّ في صورة امرأة!

نظرت إلى لبنى وهي جالسة بجانب حبيبي تفحصتها. ابتسمت أمي بل ضحكت رحبت بلبنى أكثر من اللازم.

- و أنت تكتبين عن ماذا؟

- عن الإنسان وحقوقه المغتصبة!

هزت أمي رأسها وكأنها تفهم كل شيء ولم تسل مرة أخرى. بعد الغداء أخرجت لبنى سيجارة وبدأت تدخن في استرخاء وهي جالسة على كرسي الصالون المذهب! إن شالله ما توعى تقوم! الصايعة!

كان يبدو سعيدًا... لماذا يبدو سعيدًا؟

التقت أعيننا أنا ولبنى.... فمدت لبنى يدها وأمسكت بذراع أشرف وكأنه من ممتلكاتها التي كانت تملكها قبل تأميم قناة السويس وانتقال عائلتها الكريمة إلى الحي الشعبي في القاهرة!

لا يهم... كل هذا لا يهم... هو الآن في مرحلة ما قبل النضج... عندما ينضج سيجدني في انتظاره... ولكن عندما شبك أشرف أصابعه بأصابع لبنى خرجت مني رجفة رغمًا عني وهرولت إلى حجرتي. أغمضت عيني وأنا جالسة على السرير وتصورت أنني أنا مكان لبنى... يا إلهي... لو أصبحت مكان لبنى! أحسدها! لو كان لدي جرأة لبنى.. لو استطعت يومًا أن أمسك يده هكذا!

أحيانًا... فقط أحيانًا كنت أتمنى أن أكون لبنى... ولكن هذه أفكار شيطانية وهذا اختبار علي أن أجتازه... أنا لست لبنى.... لبنى لن تكسب اللعبة!

الخير سينتصر أخيرًا!

عندما عادت لبنى مع أشرف إلى بيته... بدت عابسة وقالت وهي تشرب البيرة وتدخن سيجارتها: هذه الفتاة تحبك... هل تعرف هذا؟

ابتسم ابتسامته التي بدأت لبنى تدمنها وقال وهو يقترب منها: تغارين منها يا حبيبتي؟

قالت في عصبية: بالطبع لا أغار ولكنها تحبك... أريدك أن تأخذ حذرك فالفتيات الساذجات هن أخطر شيء على الرجال.

قال وهو يطوق خصرها ويهمس في أذنيها: ماذا يمكنها أن تفعل؟

قالت في حدة: كنت تعرف أنها تحبك؟

- بالطبع أعرف.

ابتعدت عنه... نظرت له وقالت: أي لعبة تلعب يا أشرف؟

قال في براءة: لا ألعب أية لعبة.

- بل تلعب لعبة.... لماذا تريد تعذيبها إذن؟

ابتعد عنها قائلًا في دهشة: ما هذا الهراء؟!

- ماذا تريد منها.... أنا أعرفك!

فكر هنيهة ثم قال: ربما أريد أن أكسر هذا الجمود... وهذا التراث البالي.

- تقصد معتقداتها... تظن معتقداتها تراثًا باليًا؟

هز رأسه بالإيجاب.

- و كيف ستفعل هذا؟ ستغويها أم ماذا؟

ابتسم في تهكم وشيء من الغضب وكأنها عرضت عليه أن يجرب أكل القواقع بالجبن الرومي والبصل الأحمر. : فكرتك عني سيئة للغاية... لبنى أنا لا أغوي الفتيات وخاصة إذا لم يعجبنني... فقط أتمنى أن تتألم.. تخرج من جمودها.. تعرف ما يدور حولها. لا أحب الجهل والجمود والمعتقدات القديمة قدم الفراعنة.

- ماذا تريدها أن تفعل.. تقيم علاقات.. تفقد عذريتها.. في مجتمعنا... ؟!

قاطعها في عدم صبر: ربما... ربما عليها أن تعيش كما تريد لا كما يريد المجتمع عليها ألا تحترم أخاها أكثر من أختها عليها أن تكون مثلك يا لبنى.

- شيوعية!

- عندها رأي ما، أي رأي.. لم أر امرأة مثلك قط لا في بريطانيا ولا في مصر... فلننسَ وفاء... أنت يا لبنى.

صمت وهو يقترب منها أكثر.

- أنا ماذا؟

- أنت الحياة التي لم أعشها ولم أعرفها.

بعد أن مارس الحب معها..

استلقى على السرير الكبير وأغمض عينيه وهمس وكأنه يكلم نفسه: لبنى..

انتفضت من جانبه وهي تقول: أشعر بالجوع! فلنأكل شيئًا سأطبخ لك..

قال في هدوء وهو مغمض العينين: أنا سأطبخ لك وأنت تبقين هنا لا تتحركي يا حبيبتي.

ثم قام وهي تنظر له.. وقلبها يخفق له لرقته التي لم تعهدها في رجل من قبل.. تعشقه ولا تدري كيف تتخلص من هذا العشق. تنهدت وأغلقت عينيها من جديد ونسيت للحظات أين هي وما هي مهمتها في الحياة وكم الساعة ودمنهور ووفاء.. وفاء.. ماذا تريد منه؟ ماذا تتوقع هذه الغبية؟!

لو تزوج وفاء ستقتله. ولو تزوج غيرها ستقتله أيضًا.. وكم تريد أن تقتله.

جاء بصينية مليئة بالجبن المستوردة والخبز الإفرنجي والكافيار والبطارخ.. تنهدت من جديد وقالت: كنت أظنك ستطبخ لي!

قال وهو يجلس على السرير: لا أريد أن أضيع الوقت في الطبخ فلم يبق لنا سوى القليل.. أريد أن أكون بجانبك.. فقط بجانبك.. آه لو تبقين هنا للأبد! آه لو

نسينا كل العالم وإمبابة والسياسة وأخاك وأمك وخالتي وعملي وقاطعته في توعد: ووفاء؟

ابتسم في تهكم: لا أتذكرها أصلًا!

قالت في فضول: تكرهها؟

قال في ملل وهو يضع رأسه على الوسادة: تكلمنا في هذا من قبل.

قالت في تحدٍّ: فلنتكلم من جديد.. كلمني عن نفسك أولا يا بائع الفستق!

أغمض عينيه وقال وكأنه يخاطب نفسه من جديد: طفل منطوٍ مدلل.. ممزق بين أمه وأبيه.

- علاقتهما سيئة.

قال في لامبالاة: فظيعة!

- أمك؟ هل تكره أباك؟

قال في ميكانيكية: كرها كبيًرا.

ثم صمت ثواني وقال وكأنه تذكر شيئًا هامًّا: أمي أحيانًا تذكرني بوفاء!

- لهذا تكرهها.

- ربما أشفق عليها أحيانًا.. أكره وفاء وأعشق أمي.

- و تشفق على من؟

- أمي بالطبع.. عاشت مقيدة بأغاني أم كلثوم ولم تحرر نفسها من القيد بينما أبي يزهو بجواز سفره البريطاني ويقابل اللوردات ويفتخر بالحضارة والتقدم.. وهي تستمع للأغاني وتلعن المحتلين والفجر والانحلال.

عبس وجهه وهو يتذكر أمه وحياتها الضيقة في بريطانيا العظمى.
لم تتأقلم يومًا ولم تطلب الطلاق. وكانت تفتقد الخيال.. نعم مشكلة وفاء وأمه أن الحياة في نظرهما بلا خيال..

هكذا كان يظن أشرف ولم يكن يعرف شيئًا عن خيالي المتوحش.

نظر إلى عينيها الكبيرتين وإلى الحول الطفيف الذي يعرفه ويعتاده. كانت تشبه القط البلدي متحفزة ونحيفة وعيناها تحملقان في أي شيء وكل شيء ثم ابتسم وأمسك بيدها، احتضنها بين كفيه وهمس: لبنى إنك أروع امرأة رأتها عيني.. لو أغلقت فمك هذا.. لو توقفت عن كل الهراء الذي تنطقينه!

كانت تريد أن تصرخ.. تقطع علاقتها به.. ولكن فمه على يدها كان يسكتها.لم يعاملها رجل هكذا قط.

حتى مهند الصحفي العراقي.. كان رقيقًا معها ولكنه لم يكن بهذه الرقة لمسته كانت سريعة وعملية.. كان مناضلًا ولم يكن عنده الوقت للحب. أما أشرف.. فالحب لعبة يعشقها.

وأشرف كان يقلقها ويخرج ضعفها وغضبها.

انتفضت من على السرير وارتدت ملابسها وأمسكت بحقيبتها وهو ينظر إليها وابتسامته الساخرة مرتسمة على وجهه.. قالت في غضبها المعهود: على أن أرحل.. لا أريد أن أستمع إلى كلامك المستفز.

لم ينطق.

فتحت الباب على مصرعيه فقال مسرعًا وهو يمدد جسده على السرير: مع السلامة يا لبنى.

لم تجب، خرجت من الحجرة إلى الباب.. تثاقلت خطاها بعض الشيء وفتحت الباب فصاح من جديد من حجرة النوم: سأراك غدًا!

كان سؤالًا وكان يعرف إجابته!

قالت في تلقائية: نعم.

و أغلقت الباب ونزلت السلم مسرعة وقلبها يخفق وعقلها يعمل!

وكان حبه لها كشعلة الأولمبياد محترقًا وحارًّا. وأحبته... أعتقد أنها أيضًا أحبته إذا كان للغواني قلوب.. في الأفلام القديمة الغانية لها قلب. الغانية أرغمت على البغاء ولكن لبنى غانية من نوع خاص .... لا بأس. ربما أحبته. لا أعرف ولا أريد أن أتكلم عن هذا الآن... فلنتكلم في موضوع آخر!

* * *

أختي سالي أصبحت لا تطاق وبدأت أخاف عليها من مستقبل مجهول ربما ينتهي بها إلى حال لبنى. كان علي أن أخبر أخي وأمي وربما علي أن أنتظر بعض الشيء قبل إخبار أبي... فقد راقبتها، كانت تتكلم مع رجل من جديد. أخبرت كريم أنني أشك في سالي وأنه كرجل للبيت عليه أن يتصرف في الأمر، وكريم كان في السادسة عشرة. وكالديك الأحمر المراهق نفش ريشه وذهب إليها ودار بينهما حوار أعرج حتى انهارت أختى واعترفت فشدها أخي من شعرها وهددها. نظرت إلي في كره ولم تنطق. أما أمي فقالت في غضب: سالي... اعقلي قبل أن نخبر والدك. التليفون ده مش عيزاكِ تيجي جنبه تاني... تعال يا كريم يا حبيبي علشان تاكل.

في نفس اليوم شعرنا بفخر غريب أنا وأمي وكريم يتكلم مع صديقته... هناك فرق كبير بين الرجل والمرأة...

أما أشرف فلم تكن علاقته بلبنى نشوة متصلة، فلبنى عصبية ومجنونة وشيء آخر... نشيطة نشاط الظبي وقت الخطر. وكانت مشاعرها تجاهه تترنح ما بين الامتلاك والكره والغيرة الهستيرية منه وعليه. بدأت زياراتها المفاجئة للبنك بين الحين والآخر ويا ويله إذا كان يتكلم مع امرأة أخرى... تثور وتصرخ وتحطم الأطباق في شقته ولا تدمع... يحاول تهدئتها وينتهي الأمر بأن تلقي برأسها بين ذراعيه وهي تتوعده وتسبه.... ووضعها كان مهينًا... نعم.... كانت تعرف بالطبع ولم تطلب منه الزواج ولم يعرضه عليها ولكن يا ويله لو حاول شراءها.... عندما جاء لها بهدية، خاتم ذهبي ثارت من جديد وتساقطت الدموع من عينيها لأول مرة وهي تشهق، صاحت في وجهه: تظنني غانية... تظن أنك ستشتريني بمالك!

يومًا دعاها إلى فندق خمس نجوم للعشاء ثم عرض عليها أن يبيتا ليلتهما في الفندق معًا فصرخت من جديد أنها تكره المال والأغنياء بمن فيهم هو.... رحلت أيامًا ولم تعد.... وكان يعرف لبنى بعد مدة ويعرف أنها ستعود وتستسلم له وتلقي بنفسها بين ذراعيه... لبنى لم تكن تختلف عني كثيرًا في الحقيقة كل النساء من نفس الضلع.... كانت تعرف أنها يوم زارته في بيته يوم أعطت نفسها له شفهيًّا حتى ولو لم تعط نفسها له في ذلك اليوم فقد أعطت نفسها له بعدها وأنها تعطي نفسها له.... هل تفهمون قصدي؟ كانت تشعر بعدم أمان رهيب وربما شعور بالذنب.. لا أدري ربما كانت تعيش إذن.... عاشت ... عاشت معه في الحقيقة وليس في الحلم وكم حقدت عليها.

لا بأس.

في الحقيقة كنت أفهم أشرف وأعرف مشكلته مع لبنى، وهي مشكلة فكرية على ما أعتقد. أشرف يعشق المال والحياة الرغدة ويحب أن يقضي وقتًا في الجاكوزي والجيم وأكل الكافيار في المطاعم الغالية والجاتوه الفرنسي والشيكولاتة السويسرية... ولا يعرف إمبابة ويحاول أن يقضي معظم وقته بين الزمالك والمهندسين... والعمل والمغامرة والمال والشمبانيا. كان يريد تدليلها. كان يريد أن يجعلها أميرته ورفضت في فخر، وعشقها لأنها رفضت ولم يحاول دخول إمبابة ورفضت هي دخول الزمالك!

* * *

- 3 -

أمسك بالريموت كنترول وبدأ يحرك السيارة اللعبة في اتجاه المطبخ بسرعة ثم يغير الاتجاه إلى حجرة المعيشة ثم الصالة ثم المطبخ وتدور السيارة حول المائدة ثم الصالة ثم المطبخ!

وأصبعه تضغط على الزر في حماس.

فقد اعتاد الوحدة وأدمن اللعب. اعتاد الوحدة منذ كان طفلًا منطويًا خجولًا وأدمن اللعب منذ كان مراهقًا وتعلم أن حب المرأة ليس فنًّا بل علمًا. وبما أنه كان طفلًا مختلفًا، مصريًّا في المدارس البريطانية، فلم ينجح في اكتساب الصداقات، ولكنه نجح في اكتساب الصديقات. وكانت متعته هي أن يلعب بالسيارات والنساء. ولكنه كان قليل الصبر يسأم النساء سريعًا ولا يسأم أبدًا السيارات واللعب.

عندما كان يسمع صوت أمه تصرخ وتبكي كان ينكمش في حجرته بدلًا من أن يعانقها ويبدأ في اللعب بسياراته ودباباته وطائراته ويشنها حربًا على كل البشر ودائمًا يكسبها!

كانت يده تضغط على الزر في حماس حتى سمع صوت الهاتف!

لم ينتبه. استمر صوت الهاتف.

فاضطر أن ينتبه، أسند الهاتف بكتفه وهو يحرك السيارة في كل اتجاه بالريموت كنترول. ما إن سمع صوت أمه حتى قال في حنان: ماما إزيك يا حبيبتي.

قالت في لهفة: أشرف بتعمل إيه؟ مع البنت الصايعة دي اللي سمعت عنها؟

قال في جدية: بشتغل يا ماما بكتب بيانات عن عميل جديد للبنك.

قالت في خجل: معلهش يا حبيبي أنا بس خايفة عليك!

كان يطارد السيارة بعينيه ويضغط على الزر.

- أشرف رحت فين؟

- كنت بقرأ في الورق.

- خلِّي بالك من نفسك.

أغلقت سماعة التليفون وبدأ هو في الاستمتاع بوحدته. كان يريد أن يستمتع بوحدته. ما أجمل وحدته! اعتادها وأحبها. أخرج سيارة جديدة من الخزانة وبدأ يفتح علبتها في لهفة وبدأ يلعب بالسيارتين معا. ويضغط على الزر.

سمع صوت الهاتف من جديد! فشعر بأنه عريس خطفوا زوجته في ليلة الدخلة! وكان يعشق السيارات اللعبة والسيارات الحقيقية ويقضي معظم وقت فراغه بها ومعها، يجربها ويختبرها!

قال في اقتضاب: نعم!

- بتعمل إيه؟

جاء رد لبنى حادًّا!

قال في ضيق: بشتغل.

همست في شوق: وحشتني.

لم يجب. كانت عيناه تطاردان السيارة .

فقالت في غضب: مين معاك يا أشرف؟

تنفس الصعداء وقال في ضيق: تاني يا لبنى!

صاحت في غضب: مين معاك!

نظر إلى ساعته، كانت الثانية صباحًا! قال في تحدٍّ وشيء من الشوق: تعالي شوفي بنفسك.

صرخت: كداب! وعارف إني مش ممكن آجي!

قال وهو يتصنع الدهشة: ليه!ده انت بميت راجل.

- أشرف..

قاطعها في حدة: تصبحي على خير يا لبنى.

ثم وضع السماعة ونفخ في غيظ.

أما هي فارتدت ملابسها ونظرت حولها لثوان. كانت تعرف أن أمها نائمة وأخاها لن يأتي الآن. سارت في قوة الغضب الطازج العذري الذي دائمًا ما تشعر به لبنى وأوقفت «تاكسي» واتجهت إلى بيت أشرف.

كانت النار بداخلها تدفئ ذراعيها ويديها ولم تكن تدري أنار الشوق له هذه أم نار الغيرة أم نارالشعور بالذنب أم نار الغضب؟

لا، بل كانت تعرف. فلبنى لا يسيطر عليها سوى الغضب. الغضب هو الملك وكل المشاعر الأخرى جنود في جيشه.

دقت الباب فلم يجب.

دقت من جديد وهي تصيح: افتح يا أشرف يا خائن سأقتلك اليوم.. الآن.. سأفعل!

فتح الباب. نظر إليها في ذهول ثم قال: والله العظيم أنت مجنونة!

دخلت في غضب تفتش في البيت كزائر الفجر!

همس في تهكم: هذه الزيارات المفاجئة تعود إلى النظام الاشتراكي الذي تتمنينه أم أنها بروفة على دورك الجديد في المخابرات!

عندما انتهت من التفتيش نظرت إليه والغضب لم يزل يتطاير من عينيها وصاحت: كف عن السخرية مني.

قال في ضيق: دقيقة واحدة! أظن أن هناك لبسًا ما! أولًا تتهمينني بالخيانة وتصرخين في وجهي ثم تفتشين بيتي.. لبنى أخشى على مصر منك! لو كنت بهذا الجبروت فأين العدالة التي تتمنينها؟

نظرت حولها إلى السيارات اللعبة.. إلى الأقلام الغالية.. إلى المكتب الأنيق وقالت في مرارة: تعشق كل ما هو غال وتافه وبلا أي قيمة!

قاطعها في ملل: تعالي أوصلك البيت يا حبيبتي.

و كانت تريد أن تمزقه أولًا. أن تتذوق الفستق، وكانت تخافه وتعشقه. هوت إلى المقعد في يأس وموجة الغضب قد أغرقتها: سأبقى.. ساعة ربما.

ابتسم في انتصار.

* * *

هل تتذكرون حب الشباب، ولن أقول المراهقة، فلم أكن مراهقة مع أنني أحببته كالمراهقة، كان يدق قلبي وترتجف قدماي لأنه قادم بعد أسبوع.. وعندما أراه ينعقد لساني وتتحرك رموش عيني بسرعة غريبة.... كان سيأتي اليوم وحده دون اصطحاب الغانية معه!

قالت أمي وهي تعد المحشي الذي كانت مقتنعة تمامًا بأن أشرف يحبه: اليوم سأتكلم معه! سأطلب منه ألا يربط مستقبله بهذه المرأة. والدته طلبتني أمس كانت تبكي! كانت تظن أنه سيعود إلى مصر ليتزوج مَّمن تصونه لا من تبعثر شرفه، كانت تخاف عليه من بنات الغرب وها هو يقع في حب غانية وكافرة هنا في مصر.

قلت في صرامة: هو لا يحبها.

- لا أدري ... ولكن لا بد ألا يثق في مثل هذه الفتاة... ربما تورطه في طفل أو أي شيء.

بلعت ريقي في خوف ولم أنطق، وعندما دق على الباب أسرعت لأفتح له. نظرت إليه... وهويبتسم في شموخ... ماذا بهرني؟ بنطلونه الجينز وقميصه الأبيض ووجهه المدبدب وعيناه الواسعتان وأناقته وذراعه، كنت أحب ذراعه اليسرى وساعته الفضية وصوته الهادئ و... لا أدري كنت.. أحب بريق الغرب وثقافته وطموحه وماله وكل شيء.

دخل وجلس مع والدي وأنا لا أتمالك نفسي ثم قال وأنا واقفة أمام الباب أستمع في صمت: يا زوج خالتي أنا لا تعجبني طريقتك في الاستثمار.

قال والدي في فخر: عندنا بدلًا من البيت بيتان وبدلًا من المحل محلان.

- آه عندك بيت فاضي.. يعني بياخد فلوس مش بيجيب فلوس. البيت ده مش أمان، الأمان إنك تشغل فلوسك طول الوقت.. الركود ده مينفعش.

- يعني إيه أأجَّر الشقة؟.. ده علشان جواز كريم.

- شغلها لحد جواز كريم. مش ممكن تفضل مستنى لحد الجواز!

دخلت أمي وقالت في حماس: كفاية كلام بأه وتعالوا كلو... أشرف، أريد أن أتكلم معك يا حبيبي.

تنفس الصعداء ثم قام وهو يتوقع كلام خالته!

قالت في ارتباك: متزعلش أمك يا بني، البنت دي متنفعش.

نظر إليها في دهشة ثم قال: متنفعش لإيه؟

- إنك تتجوزها.

ابتسم من جديد ولم ينطق وكأنه لم يسمع كلمة مما قالت خالته. أما أنا فكنت أتمنى الفرصة لأخبره برأيي في لبنى وكرهي للبنى. تركتنا أمي معًا في حجرة الصالون بعد الغداء.

كنت أستفزه. هذا العقل اللزج الهلامي كجسم القوقع كان يستفزه، قال وهو يرشف رشفة من الشاي: لا تحبين لبنى تظنين أنها رخيصة؟

فاجأني بسؤاله، ظهرعليَّ الخجل كالعادة ورموشي تتحرك دون توقف، ابتسم في تهكم قائلًا: وفاء أنا زي أخوكي الكبير.... قولي لي ما رأيك في لبنى لماذا تكرهينها كل هذا الكره؟

أدرت نظري وتمتمت وكأنني أتحدث مع نفسي: أعطت نفسها لك دون ثمن.

فاجأته من جديد، قال في ذهول: كان يجب أن تقبض الثمن!

قلت مرة أخرى وأنا أتحاشى عينيه: نعم الثمن كان عمرك، ارتباطك بها للأبد ولكنها وهبت نفسها لك بلا ثمن، هي ليست رخيصة هي كالسلعة المجانية!

- وفاء: لقد قضيت شبابي في بلد آخر وأفكاري مختلفة عن أفكارك.

قلت في قوة وأنا أنظر إليه: ولكنها هي مصرية مثلي تمامًا.

- هي لم تهبني شيئًا. هي تأخذ وتعطي. المرأة لا تهب الرجل شيئًا يا وفاء.

ظهرت عليَّ الحيرة ولم أكن أدري ماذا أقول فأكمل هو في حماس: في علاقتنا معًا نحن سواسية.

قلت فجـأة في عصبية: لا، لستما سواسية... المرأة مختلفة عن الرجل، هو لا يحمل عاره معه، لا ينجب، لا يتعذب، لا ... ولكن المرأة... وضعها مختلف. ماذا تجني المرأة من علاقة فاسقة كهذه؟

ابتسم في دهشة: ماذا تجني؟ هي تحبني كما أحبها، تجني ما أجنيه.

هززت رأسي في قوة وأنا أقوم: لا.. أنت رجل ربما تتزوج بأخرى بعد ذلك، ربما تنساها، أنت رجل وهي لا تعني شيئًا بالنسبة لك. ولكن لو كانت امرأة لديها أي ذرة كرامة كانت ستحافظ على نفسها، كانت....

قاطعني في ملل: هذا يكفي يا وفاء.. يبدو أننا مختلفان كل الاختلاف

قلت فجأة في تردد: و.. شيء آخر أيضًا..

نظر إلي في فضول.

فقلت في فخر: عمتي علية تقول إن.. إن الخمر تحرق صاحبها، أنا أخاف عليك يا أشرف، أخاف من الشياطين التي ستحرقك.

صمت برهة. لم أكن أدري هل صمت لأنه كان مغتاظًا أم مذهولًا!

قال في هدوء: وفاء.. دائمًا تفاجئينني يا وفاء. ترددين كلام عمتك كالببغاء! من هي عمتك! من تكون بالنسبة لي؟ هل حقًّا تظنين أن كلماتك ستؤثر في؟

قلت مسرعة وكأنني أحاول إقناعه: أشرف.. عمتي ست ورعة وتعرف كل شيء.

تنفس الصعداء وقال في شيء من العصبية: وأنت؟ ألا تعرفين شيئًا أبدًا! ماذا تعرفين أنت؟

قلت والحرارة تسري في رأسي: ولكن يجب أن أستمع إلى من يعرف، هي مطلعة وهي تعرف كل شيء وأنت أيضًا تعرف.. تعرف أن الخمر حرام و..

قاطعني لأول مرة في عصبية: هل أنت مقتنعة بما تقولين؟ كل كلامك عن العذاب والشياطين وتفاصيل العذاب وصور العذاب.. هل عندك شيء أكبر تفكرين فيه.. شيء مختلف عن العذاب.. تهتمين بالتفاصيل والألوان والأشكال ولكن من أنت وما علاقتك بالله؟

بلعت ريقي ورددت: تعرف أن الخمر حرام.

قال في حزم: نعم أعرف أن الخمرحرام، ويوم أن أمتنع عن الخمر لن أمتنع عنها لأنني خائف، سأمتنع عنها لأنني مقتنع.. هل تفهمين؟ الفرق بيني وبينك أنك خائفة من كل شيء.. أنك تمارسين الطقوس لأنك خائفة والخوف مقزز.

لم أنطق. كان قاسيًا معي.

كان قاسيًا.

ألم أكن أريد القسوة؟ ها هي القسوة بين أصابعي.. كان قاسيًا ولم أكن أحب قسوته ولم أغضب منه، تحركت من الغرفة في هدوء وتركته والغضب لم يزل يشتعل في عينيه.

بعد ثوان دخلت سالي ووجهها متجهم ونظرت إلى أشرف في ترجٍّ. قال وهو يبتسم لسالي في حنان: ماذا بك؟

انفجرت في البكاء: وفاء أخبرت كريم وكريم، ضربني ومنعني من الخروج ولم أر أحمد منذ أسبوع.... ساعدني يا أشرف سيكرهني، ربما يتركني ولو تركني فسأترك البيت..

سأفعل.

ربت على كتفها وقال في تأثر: أنا سأتكلم مع كريم.

قالت في ترجٍّ: تكلم مع وفاء، هي السبب في كل هذا... أرجوك يا أشرف، تزوجها حتى تحل عن قفاي.

ضحك وقام قائلًا: سأتكلم معها يا سالي.

ما حدث بعد ذلك.... هو كل قصتي وكل مأساتي ... هو الوهم والحقيقة معًا. أحيانًا تتحكم فينا لحظات قصيرة ربما تبدو تافهة للبعض!

دخل أشرف المطبخ وقال في رقة: وفاء.

نظرت إليه في خجل: نعم يا أشرف.

- هل يمكن أن أتكلم معك؟

نظرت إليه وقلبي يحلق في الهواء : بالطبع يا أشرف.

اتجهت ناحية الصالون فقال في صرامة: في حجرتك.

توقفت في فزع وسعادة واتجهت إلى غرفتي... فتحت الباب وقلت في ارتباك: أنا آسفة يا أشرف الحجرة في حالة سيئة ولكني منظمة والله العظيم أنا من أنظم غرفتي كل يوم ولكن اليوم كنت أساعد أمي في الطبخ و...

لم يكن يسمع... دخل. نظر حوله. فتذكرت فيلم أم العروسة، عندما دخل العريس وكان يوسف شعبان في حجرة سميرة أحمد فقالت في فخر: أنت أول رجل يدخل حجرتي!

وكانت الجملة في حلقي فقلت مسرعة: أنت أول رجل يدخل حجرتي!

خرجت منه ضحكة وهو واقف مكانه وقال: وكريم وأبوك! ليسوا رجالًا أم لم يدخلوا هنا أبدًا!

ارتبكت وقلت مسرعة: رجل أقصد رجل ...

هز رأسه في سخرية قائلًا: نعم رجل!

نظر حوله لحجرتي، للكتب الدراسية المتناثرة على السرير وعلى المكتب وفي أماكن معينة على الأرض وابتسم.

شعرت بالإحراج من جديد وبلعت ريقي وقلت: أشرف أنا آسفة ، الحجرة ليست...

قاطعني وهو يجلس على السرير وينظر مباشرة إلى عيني: لا يهم يا وفاء لقد جئت لأتكلم معك في موضوع هام.

ثم تمدد على السرير وطوى ذراعيه وراء رأسه وهو يرى الخجل يطفو على وجهي والعرق يتصبب مني: وفاء... ماذا بك؟

أسندت رأسي إلى الباب وشبكت أصابعي وقلت في شيء من العصبية: أعرف.. تريد أن تتكلم معي عن سالي أليس كذلك؟

قال وقد التقت أعيننا: اجلسي يا وفاء.

جلست على كرسي مكتبي وأمسكت بكتاب ضممته في عصبية وشوق وخجل.

رفع رجله وضعها على السرير وكأن هذا هو مكانه الطبيعي. ولم أكن أتصور يومًا أن أشرف سوف يتمدد على سريري.. سريري أنا. ولم أستطع أن أمنع خيالي من الحلم.. أنا هنا بين ذراعيه.. على سريري.. أحلام فظيعة تصورها لي الشياطين.

ثم قال: لا يمكن أن تعاقبي أختك لمجرد أنها تحب.

قلت فجأة في عصبية: أنا لا أعاقبها لأنها تحب، أنا أخاف عليها، هي صغيرة وربما يستغلها هذا الرجل وهناك حدود يجب أن...

قاطعني وهو يعتدل في جلسته: تعاملينها كأنها بلهاء. اتركي لها حرية الاختيار هي مسئولة عن أفعالها.... كيف تحترمين أخاك الذي يصغرك بخمسة أعوام ولا تحترمين أختك؟!

قلت في تلقائية: أخي رجل لن يخسر شيئًا، أما أختي فستخسر كل شيء.

نظر لي من جديد: تخسر كل شيء! وفاء أختك تحب هذا الرجل وتريد الزواج منه!

قلت وأنا أضم الكتاب أكثر إلى صدري: لا أريدها أن تصبح مثل.. مثل هذه الفتاة التي تعرفها.. لا أريدها أن ينتهي بها الأمر.. بنت صايعة.

شعر برغبة جامحة في أن يصيح في وجهي، أن يبصق في وجهي، أن يصرخ، أنت أغبى امرأة رأتها عيني!! ولكنه لم يفعل. تنفس الصعداء ثم قال: يا ابنة خالتي، لبنى ليست بنت صايعة.

أدرت وجهي عنه حتى لا يرى الألم في عيني ولم أنطق... فقط ابتسمت في تهكم.

رأى ابتسامتي.

قام في هدوء واتجه إلى الباب وهو يفكر.. غبية وساذجة وعقلها كالقوقع إما أن تسحقه بقدميك أو تتركه يسير في بطء داخل بيته الضيق ...

توقف فجأة نظر إلى ظهري وأنا أجلس على الكرسي وأضم الكتاب إلى صدري.

أمسك بكتفي فجأة في رقة فشهقت في فزع واستدرت له... نظرت إليه في شوق، خوف، ارتباك.

أراحه ارتباكي وشوقي وخوفي... رأى الحب في عيني منذ البداية والآن رآه أكثر... ترك كتفي واتجه بيديه في بطء إلى وجهي... وضع يده على خدي فدفعت يده بلا إرادة... فهمس وهو يقترب مني: وفاء...

كنت أشعر بأنفاسه على وجنتي.

بلعت ريقي من جديد وأنا كالحيوان الخائف، العرق يتصبب مني ولم أنطق... دفع الباب فأغلقه بقدمه ثم أمسك بيدي.

فتحت فمي لأنطق، ولكنـه قال وهو يلمـس وجنتي من جديـد: وفـاء لا تخافي.

ارتجفت كما لم أرتجف من قبل. لم أتحرك... أغمضت عيني وكل قطعة مني تشتاق إليه... وكأنه أشعل نارًا داخل قلبي، لم أكن أدري أن قلبي يشتعل بهذه السهولة... عانق خدي بيديه وأنا في عالم آخر.. همس من جديد وهو يداعب وجنتي بظهركفه في إتقان وبطء: الحب جميل يا وفاء لا تحرمي أختك منه ... حرام يا وفاء... حرام

لم أنطق.... كل شيء يحدث بسرعة كبيرة ولا أدري ماذا أفعل.... سأوقفه الآن. نعم سأوقفه... أخذ يمر بإصبعه على وجنتي ونار أخجل منها تشتعل بداخلي . اتجه بأصابعه إلى عنقي ثم ذراعي مر بيده على ذراعي وقشعريرة تسري في جسدي قبل أن أستوعب ما يحدث.

ابتسم في انتصار، وفتح باب الحجرة وخرج في هدوء دون أن ينبس بكلمة.

تنفس الصعداء خارج الحجرة . لم يعد يطيقني.. ولا يدري لماذا كان بهذه القسوة... أحيانًا كان يضغط على نقاط ضعف خصمه والآن بالذات لا يشعر بالندم فمبادئي تستفزه وتحزنه!

أما أنا فقد ألقيت بجسدي على سريري وابتسمت لنفسي ورحت في عالمي الخاص... وهذه النار بداخلي التي أشعلها لا تتركني. ماذا فعل... وضع يده على وجنتي.... وعنقي وذراعي. فعل. هل فعل؟ هل فعل؟ كنت متأكدة أنه فعل هذا ولم أزل متأكدة أنه فعل هذا. كانت الحقيقة أجمل من أحلامي بكثير ويده الدافئة كنت أشعر بها كما يشعر الكلب برائحة أمه وهي قادمة من على بعد! وقررت يومها أن أشرف هو أبو أولادي وزوجي وحبيبي! لم يكن يعرف بعد بقراري ولكنه سيعرفه قريبًا قريبًا جدًّا.

في الواقع الرجل لا يلمس المرأة بهذه الطريقة إلا إذا كان يحبها حبًّا كبيرًا أنا متأكدة.

* * *

و يبدو أن الحظ قد ابتسم لي أخيرًا، ففي غضون أسبوع قررت أمي أن علينا زيارة عمتي في القاهرة من أجل زواج ابنتها عبلة، وبما أن بيت عمتي صغير ووالدتي لا تطيقها أصلًا فقد قررت والدتي أن نبقى جميعًا في بيت أشرف، ولم يعترض أبي. أما السبب الأصلي فكان بالطبع حب استطلاع أمي لرؤية شقة أشرف في الزمالك، الشقة التي كانت مقتنعة تماما بأنها ستكون لبنتها قريبًا وأيضًا العمل على الوصول لهدفها. وكان عليها أن تدعو أشرف للزفاف وكان عليها أن تلح حتى يأتي، فعندما يتذوق طعم الفرح سيتوق إليه!

كان قلبي يخفق طوال الطريق، وقضيت الوقت في أحلام اليقظة من جديد. وما إن وصلنا ودخلنا إلى شقته وفتح الباب حتى شعرت بجسدي يرتعش كما لم يرتعش من قبل. التقت أعيننا فابتسم لي وقبَّل أمي ودخلنا إلى شقته الرائعة..

أخذت أمي تمصمص شفتيها وهي تنظر إلى النافذة الكبيرة التي تطل على النهر وحجرة الصالون الحديثة والكنب الأسود الجلدي والمنضدة الكبيرة والنافذة الصغيرة التي تصل المطبخ بحجرة الطعام! ثم وقعت عيناها على زجاجة النبيذ فضمت شفتيها وحركت فمها في حسرة.

فقال أشرف وكأنه يفهم بماذا تفكر وكأنه يسخرمنها ويلهو بها!

- تشربي إيه يا طنط؟

قامت أمي وقالت وهي تنغـزني في جنبي: البيت بيتنا يا حبيبي. قومي يا وفاء إنت وسالي وهاتي عصير واللا حاجة لأخوكي وأبوكي.

قمت في خجل ووقفت في حيرة فابتسم أشرف، وقال: لقد طبخت لك اليوم يا خالتي، بالطبع طعامي ليس كطعامك فقط مكرونة وفراخ..

نظر إلي وقال في رقة: تعالي يا وفاء معايا!

هل قالها؟!

قال: تعالي يا وفاء.

أغمضت عيني لثوان ثم اتجهت إلى المطبخ وأنا افتح عيني في ذهول.. هو طبخ... هو يغسل الصحون هو... رجل بهذه الرقة وكل هذا الحنان! ولكن بعد الزواج لا أريده أن يطبخ. أريده فقط أن يعشقني، أريد أن أصبح ملكه أعطي نفسي له هبة وأستمتع فقط بوجودي معه. لا.. عندما نتزوج... أغمضت عينيّ

حتى لا يرى اللهفة فيهما. كنت أراه من جديد قاسيًا يمزق ملابسي في قسوة ثم يذيبني بداخله..

مد يده بالأطباق: اتفضلي يا وفاء.

فتحت عيني في فزع.. نظرت إليه.. وخيالي لم يزل يتأرجح بي في الهواء.. كان يقبلني ويقبلني وقبضته تؤلمني وكنت أعشق هذا النوع من الألم ويده على جسدي تعلن سيطرتها عليَّ تمامًا.

- وفاء.

قلت في اضطراب: أنا آسفة.

مددت يدي لآخذ منه الأطباق فقال فجأة وهو يعطيها لي: بماذا تفكرين؟

يا إلهي.. هل قرأ أفكاري إذن! فجأة خرجت عمتي علية من خيالي وهي تصرخ: حرام يا وفاء.. الشيطان تحكم فيك.. وفاء..

ابتسم وقال في رقة: تفضلي أنت يا وفاء.. أنا سأحمل الأطباق.

قلت في ترجٍّ: لا.. أنا آسفة المسافة كانت طويلة و..

ابتسم وهو يتجه إلى باب المطبخ وفي يده الأطباق: نعم كانت مسافة طويلة أعرف.

جلسنا كلنا حول المائدة. والدتي تقول من جديد: إتجوز بقى يا حبيبي. بنت تصونك وتحافظ عليك.

لم ينطق، فقال كريم مسرعًا: أنا بقى سأتزوج من أجنبية وأرحل عن هنا.

صرخت أمي في فزع: يا لهوي! اسكت يا ولد.

قالت سالي مسرعة في فضولها المعهود: هل كانت عندك صديقة في بريطانيا؟

نظر إليها والدها في عتاب فربطت نظرها بالأرض ولم تنطق.

عندما فرغنا من الطعام، أمسكت سالي بيدي في خبث وقالت: تعالي معي بسرعة.

مشينا في الممر حيث حجرة الضيوف والحمام وحجرته هو..

لمست سالي الباب في بطء: تعالي نشوف في إيه جوه... تفتكري البنت دي عايشة معاه هنا!

- عيب يا سالي. ماما لو عرفت!

قالت في ملل: آه أنت حتقولي لماما... طيب يللا نعمل الشاي.

قلت فجأة: لا.. لن.. لن أقول لماما.

نظرت لي في دهشة ثم قالت وهي تمشي خطوات داخل الحجرة في حذر: تعالي معي.

دخلت وقلبي على مسمع مني. أمسكت بيد أختي الصغيرة فهمست: إيه يا وفاء إيدك ساقعة كده ليه إنت حتسرقي بنك! دي حجرة ابن خالتك.

بلعت ريقي ولم أجب.

تسمـرت عيناي على السريـر الكبير وغاص عقلي من جـديـد.. أحبـك يا وفاء.. أحبـك.. أنت لي.. ملكي .. منِّي ولي.. وفاء.. فلننـس الماضي.. من اليوم لا أريدك أن تفكري في شيء سواي. وفاء إياك أن تخرجي دون إذني.. لا أريد لإنسان غيري أن يراك.. وفاء.

استيقظت على صوت سالي وهي تقول في خبث: آه.. انظري.. مشط شعر وزجاجة عطر وروج.. كنت أعرف هذا! في هذا السرير.. ابن خالتك يفعل الكثير.. وفاء.. هل رأيت كل الخمور التي يشربها! أشرف لذيذ ولكنه شيطان وكم أحسده!

قلت في غضب ويأس: لا تقولي هذا. عيب يا سالي. دلوقتي حقول لماما.

وضعت بعض العطر على يدها وبدأت تشمه قائلة: رائحته جميلة هل تظنين أنه هو من اشتراه لها؟

شهقت فجأة في فزع وهويت إلى السرير وهو يمدد ظهره على الباب وينظر لسالي في شيء من السخرية شيء من الإعجاب ولم ينطق.

فقالت سالي: أشرف.. كنت .. كنت أبحث عن السكر من أجل الشاي. هل يوجد سكر هنا؟

هز رأسه بالنفي وقال وهو يكتم ضحكاته: لا.. لا يوجد سكر هنا.

وضعت سالي العطر وجرت إلى المطبخ: حدوَّر في الحمام.. ف.. فالمطبخ قصدي.

قمت أنا أيضًا، سرت خطوة فقال هو في رقة: وفاء.

بلعت ريقي ولم أنطق. توقفت وأنا لا أرى أمامي، فهمس هو وهو يقترب مني: لم أكن أعرف أنك شقية كده.. ولئيمة قوي!

قلت ويدي ترتجف: أنا.. ؟

وضع يده على يدي وقال في نفس رقته: لماذا ترتجفين؟

همست وأنا أنزع يدي من بين يديه: أشرف هل.. هل.. ؟

قال في ثقة: نعم.

- لم تسمع سؤالي.

- أعرفه.

- تأتي لك في البيت؟

هز رأسه بالإيجاب.

- وهذه أشياؤها؟

هز رأسه بالإيجاب.

قلت في غضب: دي صايعة قوي! معندهاش أهل!

- تحبني.

قلت في عنف: لا.. لا تحبك. لو كانت تحبك كانت ستصون شرفها، آه من العذاب الذي ستشهده!

ابتسم في تهكم..

فقلت في جدية: هل تعرف أمثالها؟ في القبر سيعذبون أشد عذاب، قرأت هذا الكتاب عن عذاب القبر يا إلهي لو قرأته...

هز رأسه بالإيجاب وهو يتزعم الجدية وكأنه يتفق معي ثم قال: هل ستنامين هنا أنت وسالي؟ في البيت حجرتان فقط أعتقد ربما تنامين هنا أنت وسالي ووالدتك ووالدك في الحجرة الثانية وأنا وكريم في حجرة الجلوس.

ثم سار بجانب السرير ووضع يده على السرير وقال وهو يمر بيده في بطء على الجانب الأيمن من السرير: هنا.. هل ستنامين هنا؟

و شعرت بتقلص غريب في معدتي ولم أكن أعرف ما هو وكأن جسدي ينتفض ويثور. كنت أشتهيه كالغانيات وكرهت نفسي من أجل هذا!

التقت أعيننا ولم أفهم. ربما فهمت. همس وهو يبتسم في رقة: هنا أنام كل يوم.

قلت في بلاهة وأنا أردد كلماته: كل يوم!

قال في رقة وهو يتجه إلى الباب: كل يوم!

و كان أملي ورغبتي الوحيدة هي النوم في حجرته. هنا حيث ينام. ولم يتحقق.

ولكني نمت في حجرة الضيوف، وفي الحقيقة لم أنم وكنت أفكر في كلماته ورقته، كان رقيقًا ولم أكن أحب رقته، ربما كنت أحبها، لا أدري. كان هناك أشرف داود الذي يكمن هنا في حنايا عقلي وأشرف داود الذي يسكن في الزمالك.

ابتسم لنفسه.. ربما ضحك لنفسه. كان يلعب معي دون أن أدري وأشرف يعشق اللعب. كان يكوِّنني بين أصابعه كالصلصال ولم أسامحه. قط.

* * *

لو عرفني فسيحبني. كنت متأكدة من هذا. يحتاج أن يعرفني أكثر. يحتاج أن يقضي وقتًا أطول معنا. نعم هو يحبني. ربما.. ربما يحتاج وقتًا أطول.

اليوم. في زفاف عبلة. سيحبني. كنت أريد أن أكون أجمل بنت في الفرح. ارتديت فستانًا أخضر ممتلئًا بالترتر وطويلًا وذا أكمام كبيرة منفوشة.

سمعت دق الطبول وبدأت الزفة.. ظهر العروس والعريس وشعرت بقشعريرة في جسدي، وما أقوى قشعريرة الشوق! بدأت الزغاريد تدوي والعروس تبتسم والخوف لم يترك عينيها وشعرت بالدموع تترقرق في عيني. وتمنيت أن أراه الآن. وكنت صغيرة وقلت في نفسي: يا رب.. والنبي خليه ييجي.. معلهش يا رب سامحني على كل الأفكار الوحشة اللي في مخي والنبي يا رب عايزه أشوفه.

جلست في انتظاره. عيناي تبحثان عنه في كل القاعة. جلست كالطالبة المجتهدة بجانب أمي في أدب واستسلام وأنا أخشى «لسوعة» خشبة المدرسة. أخاف العذاب. حاولت سالي أن تشد يدي لأرقص معها ولكنني نظرت إلى أمي وقلت في ضيق: لا يمكن! حرام!

رأيته أخيرًا. كان يرتدي بدلة سوداء ويبدو تائهًا وسط الرقص والصخب والضحكات والزغاريد. كان يبدو أصغر بكثير بالبدلة السوداء. أغمضت عيني وتنهدت ثم طاردته بعيني.. عيناي لم تتركا عينيه. يخفق قلبي كلما اقترب وأتمنى أن يجلس بجانبنا ولو دقائق. صوت الموسيقى الصاخب حجب عني صوته.

كان يبدو متألقًا جميلًا مبتسمًا واثقًا، ولكن الشعور بالضياع لم يترك عينيه. وعيناي تغرقانه، تبتلعانه في تردد وخوف.

فليقترب. فليجلس معنا. جاء لدقائق فقط.

اقترب، جلس بجانب أمي وهو ينظر إلى ساعته ولم ينطق.

فتحت فمي، لم يكن ينظر إلي. فتحت فمي من جديد وصرخت: أشرف..

نظر إلي.

قلت في عصبية: الصوت عالي. هل تسمعني؟

هز رأسه بالنفي وهو ينظر إليَّ. صرخت من جديد: عقبالك.

هز رأسه بالنفي: لا أسمعك.

- الفرح ده جميل؟ مختلف عن الأفراح في بريطانيا.

نظر إلي من جديد.

فوجدت نفسي أهمس بلا إرادية: أحبك.

نظر لي من جديد وقال في حيرة: ماذا قلت؟

همست في يأس: لا شيء.

لم يكن يسمعني ولم يسمعني.

نظر إلى ساعته وقام قائلًا: علي أن أعود الآن.

فقامت أمي قائلة: ونحن معك يا بني. يله يا بنات.

وعندما عدنا إلى بيته قال كريم في حماس وهو يجلس على المائدة الأنيقة في حجرة الطعام عند أشرف: كان فرح ممل قوي!

قلت مسرعة: الصوت كان عالي قوي! مش كده يا أشرف؟

خلع جاكتته وألقى بها على المقعد وجلس في لامبالاة.

لم يجب. كان يعشق كونه مطمع الجميع! كونه كحبات الفستق النادرة الكل يريدها ويتمناها. لهذا كان يزورنا. لهذا قَبِلَ الدعوة وحضر زفاف عبلة! من أجل الفخر والغرور!

جلس أبي على المقعد المقابل لأخي فقال أشرف: نعم.. الصوت كان عالي! ماذا كنت تقولين يا وفاء؟

قلت وأنا أحاول مداراة خجلي: كنت أقول إن هذا الفرح يختلف عن الأفراح في بريطانيا.

قال مؤكدًا في حماس: نعم يختلف عن الأفراح في بريطانيا! الناس هنا سعداء.

قلت في حماس فجأة وأنا أجلس على مقعد حول المائدة: تحب مصر أكثر من بريطانيا؟

لوى شفتيه في ابتسامة ساخرة ولم يجب.

مر بعينيه علينا جميعًا وكأنه ملك يتفقد رعيته ثم قال كطفل سعيد: لنلعب معًا كلنا كوتشينة!

قال كريم في حماس: يله!

لم ينطق أبي ولكني كنت أرى إعجابه بأشرف ومال أشرف وخوفه من أشرف ومبادىء أشرف. أبي كان يتمنى أن أتزوج أشرف، ومع أن هيبته منعته من التصرف مثل أمي كنت أرى أمنيته في حماسه الشديد كلما جاء اسم أشرف.. جلست سالي بجانب أشرف وظلت أمي واقفة لا تتحرك ربما من الدهشة، ربما من الحيرة! لا أدري. ولم أكن اتوقع أن يلعب أبي الكوتشينة! ولم أكن أعرف أنه يستطيع هذا! وجلست أبتلعه بعيني مرة أخرى بلا كلمة. وكان ينظر إلي ويبتسم من حين إلى حين وأمسك بالورق وبدأ يفرقه في حماس طفل ذكي. ثم قال لخالته في فرح: يله يا طنط! إنت واقفه كده ليه!

قال أبي في تهكمه المعتاد: منال متنفعش تلعب. هي تعرف الفرق بين الورق ده وورق العنب!

ضحك كريم. وضحك أبي. ولم تضحك أمي. ولم يبد عليها أي شيء. ولم أجد أي شيء محرجًا في كلمات أبي. أما أشرف فنظر لأمي لثوانٍ ثم لأبي وبدت على فمه ابتسامة لم أفهمها لحظتها. ثم تجاهل كلمات أبي وقال: يله يا خالتي.

قالت أمي وهي تتجه إلى المطبخ: أنا حعمل الشاي.

بدأنا كلنا في اللعب وكان الحظ مع سالي وأشرف فقط. ولم أكن أدري كيف ألعب ولم أحاول، كنت فقط أريد أن أكون بجانبه. كان يلعب في حماس وجدية وكأن عمره يتوقف على هذه اللعبة وكأنه قامر بكل ما يملك وإذا لم يفز فسوف يموت.

وضع الورقة الأخيرة وقال في ثقة: ها! مين حيكسب!

استسلم أبي في أسًى، وكريم وسالي استسلما أيضًا فقال أشرف في فخر: لا بأس.. نلعب من جديد.

كنت أتعاطف مع أبي بعض الشيء وأشفق على خسارته وأفتخر بأشرف وهمست في هدوء: كفاية لعب. الكوتشينة حرام!

انطلق أشرف في الضحك ثم قال: حرام ليه! يا وفاء الكوتشينة حرام لو قامرت ولكننا لا نقامر.. بالطبع يمكننا أن نقامر! مثلًا..

بدا وكأنه يفكر في أمر هام ثم قام قائلًا: ولكن ربما أنت على صواب. هذا يكفي.

هز أبي رأسه بالإيجاب وقام متجهًا إلى الحجرة لينام وخلفه ذهب كريم. وكنت أتمنى أن تذهب سالي ولم تذهب.

فقال أشرف في حماسه من جديد: سالي فلنلعب أنا وأنت ووفاء!

بلعت ريقي في خجل وقلت: ولكنني لا ألعب جيدًا!

تمدد على المقعد ومدد رجليه تحت المائدة ثم همس لي: تلعبين جيدًا ولكن عليك أن تركزي في اللعب فقط! وفاء فلنقامر معًا! وإذا كسبتك فماذا أفعل؟

أغمضت عيني! كان الموقف فوق احتمالي فقالت سالي مسرعة: إذا كسبتها نجعلها تؤدي كل عمل البيت لمدة أسبوع!

بدا مرة أخرى وكأنه يفكر بجدية ثم قال: إذا كسبتك ! لا أدري.. فلأفكر في عقاب يليق بك!

قلت مسرعة: القمار حرام!

شدَّ يدي ودفع بي إلى المقعد قائلًا في ملل: اجلسي!

و لم أكن أستطيع القيام!

ثم بدأ في اللعب في جدية وأنا معه وسالي معه وقال لسالي وأنا أجلس بجانبه: تعرفين يا سالي. الصوت عالي جدًّا في الأفراح المصرية! لم أسمع أي شيء مما قالته لي وفاء اليوم ومما قالته لي خالتي.

ثم صمت لثوان وقال في بطء وخبث: لم أسمع سوى ما قيل لي من الهمس.

كاد قلبي يتوقف. قمت في ارتباك متجهة إلى حجرة النوم! هو سمع ما قلته؟ هل سمع؟

قال وهو يبتسم: وفاء.. ألن تقامري معنا!.

قلت: أنا متعبة.

همس: تصبحي على خير.

همست في شوق: وانت من أهله.

قالت سالي فجأة: ماذا قالت لك وفاء في الفرح؟

قال وهو يفرق الورق من جديد: إذا كسبتِ فسأخبرك! أما إذا كسبتُ أنا! فستخبرينني أنت بكل شيء عن أحمد!

- لو عرفتْ وفاء!

- لن تعرف، وحتى إذا عرفت أعتقد أنها تغيرت!

* * *

آه نسيت أن أذكر عمتي علية.هل ذكرت عمتي علية من قبل؟ كانت أكثر شخص أخافه في حياتي. كانت مستديرة ودائمًا حافية القدمين. ودائمًا تجلس القرفصاء على الأريكة والحجاب الأسود يغطي شعرها الأبيض والعباءة الرمادية لا تتغير كثيرًا سوى عندما ترتدي عباءة رمادية أخرى. ولكنها كانت تبدو لي كجنية من أعماق النيل تعرف كل شيء وتقدر على كل شيء.

قالت عمتي في أسًى وهي تنظر إليَّ وأنا أصلي: حرام كده يا وفاء. دلوقتي بيصلي معاكي مائة شيطان.

لم أنطق. ركعت ثم سجدت ثم قلت بعد أن انتهيت من صلاتي، قلت في خوف: ليه يا عمتي؟

قالت في حماس: عندما تصلين عليك أن تضعي يدك على يدك هكذا، هل ترين؟ ثم لا تحركيهما. لا.. لا، يجب أن تتدلى ذراعك هكذا أبدًا، إوعي يا وفاء.

كنت أهز رأسي كما أفعل دائمًا مع عمتي. فعمتي ست مبروكة وتقية وأنا أتعلم منها وأخاف أخاف جدًّا من العذاب.

كانت تتكلم لساعات وساعات وكنت أهز رأسي في حماس وخوف وأنفذ ما تقول، فمعلوماتي ضئيلة وهي تعرف كل شيء عن العذاب.

كنت أخاف كل شيء. أخاف أن أفقده وأخاف من هذا البركان الذي يكمن بداخلي من المشاعر الهدامة وأخاف من أبي وأمي وأخي وأخاف على سالي ولا أفكر إلا في أشرف.

فكرت أن أفصح لعمتي عن هذه الأفكار الشيطانية ولكنني كنت خائفة. بل قلت وأنا أساعدها في الطبخ:

- تعرفين قصة أشرف ابن خالتي ماما حكت لك يا عمتي.

- أمك مش بتحكي حاجة.

- هو .. طيب جدًّا.. ولكن وقع في الخطيئة هو يعرف بنت صايعة بالطبع تستغله.. هو غني جدًّا وصغير و.. عنده مركز يعني.

قالت في ازدراء: أعوذ بالله. ابعدي عنه يا وفاء ده نجس يا بنت. جاي من بلاد ربنا يكفينا شرها الست تعمل الأهوال هناك مش زينا.

فتحت فمي لأنطق ولم أستطع.

فقالت هي: معندهمش خجل ولا خشى هناك. مفيش بنات أصلًا كلهم ستات. ابعدي عنه يا وفاء.

قلت مسرعة: أنا مليش دعوه بيه يا عمتي مش بفكر فيه خالص. ده هو.. هو كان عايز يتجوزني لكن ماما لسه مردتش عليه.. هو!

مصمصت شفتيها: بكره يخونك قدام عينيكِ كده مع واحدة واتنين! إوعي يا وفاء.

- يمكن ربنا يهديه.

- لا ده عذابه كبير قوي! ربنا ميهديش الأشكال دي.

و كانت عمتي تتكلم كأنها على صلة مباشرة مع الله وكأنها هي العليمة والخبيرة بكل شيء ولم أكن أجرؤ على مناقشتها.

***

ولكن حياة أشرف لم تكن فقط متعة وغرورًا. ففي يوم مشمس وجميل حدث الآتي:

تحسس إسماعيل ثابت أخو لبنى قطعة الحشيش الكامنة في جيبه الأيسر وكأنه دجاجة تطمئن على بيضها! ثم تحسس المطواة في جيبه الأيمن وكأنه أيضًا دجاجة تطمئن على بيضها!

دخل البنك في ثبات يبحث عن الغني الذي جلب له العار... أشرف داود...

لفت نظره هذا الشاب وبنطلونه الجينز وقميصه الأبيض... وأشارت إليه السيدة: هذا هو أشرف!

نظر إليه في مزيج من القرف والانبهار وهذا المزيج كان كالخلطة السرية التي لا ينتهي مفعولها أبدًا... نظر إلى حذائه الجلدي الفاخر... كم يتمنى أن يكون يومًا بهذه الأناقة... لهذا استطاع إغواء أخته بالطبع! نظر إلى بنطلونه هو.... جينز أيضًا ولكن شتان بين هذا النوع وذاك! وقميصه المزركش... أين هو من أناقة أشرف ووسامته! ولكن أشرف يستخف به وبعائلته! أشرف جاء ليستغل أخته... جاء ببريق جديد يخطف الأنظار!

حملق فيه وهو يتحدث إلى مديره في البنك ويقول: نعم أفهم، عليك أن تأخذ حذرك.. ولكن تحتاج أيضًا أن تجازف بعض الشيء... المجازفة هي ما

ينقص هذا البنك... مثلًا البورصة... كم صنعت أثرياء! ربما صنعت فقراء أيضًا ولكنها صنعت أثرياء أكثر مما صنعت فقراء...

- أشرف داود... جئت لأتكلم معك!

نظر له أشرف في دهشة ثم أشار له بدخول مكتبه!

جلس وقال وهو يبتسم ابتسامته المعهودة: ماذا تريد مني؟ هل تقابلنا من قبل؟

تحسس إسماعيل المطواة .. ثم أخرجها بسرعة وحرفية وكأن هذه هي هوايته المفضلة!: جئت لأقتلك. إنت فاكر نفسك حتضحك علينا ونسكت! حتشتري شرفنا بفلوسك!

نظر له أشرف في فضول: أنا حشتري شرفكم! أنت ومن؟

شوح إسماعيل بالمطواة وقال: متستهبلش عليَّ! أنت على علاقة بأختي. بلبنى!

- أنت أخو لبنى؟

- سأقتلك وأقتلها.. العاهرة!

نظر إليه أشرف في تأثر مزعوم وقال: تشك في أختك... يا.. ما اسمك؟

تفحص أشرف وجهه والهالات السوداء التي تحيط بعينيه ثم قال في تأثر من جديد وقوة: لا بد أن تخجل من نفسك! تشك في لبنى؟ إنها أطهر بنت رأتها عيني... لبنى التي تعمل ليلًا ونهارًا لتوفر لك الهباب اللي بتشربه ده! لتطعمك أنت وأهلك... تظنها على علاقة بي...

تذكر أنه سمع تلك الكلمات ورأى هذا المشهد في فيلم عربي قديم! أحيانًا الأفلام تكون مفيدة للغاية!

صاح في عصبية: لا تستخف بعقلي... أنا أعرف.. رأيتها وهي تترك شقتك في منتصف الليل.

رفع كتفيه في حيرة: وماذا في ذلك؟ هي مسئولة عن الدعاية للبنك وهي ليست طفلة إنها بمائة رجل... هل تريدني أن أقسم لك أن علاقتي بأختك لا تتعدى علاقة عمل؟ لبنى أشرف امرأة رأتها عيني. عليك أن تخجل من نفسك... هل تخجل من نفسك؟... فلتخجل من نفسك لأنك تشك فيها.

- سأقتلها وأقتلك.

- افعل إن شئت ولكن كيف ستعيش بعد ذلك؟

- لن تشتريني بمالها سأعيش رافعًا رأسي.

ابتسم أشرف في تهكم: ارفع رأسك يا إسماعيل... ارفع رأسك يا أخي... لم يحدث شيء لتخجل منه... لو كانت بيننا علاقة لكانت الآن من أغنى الأغنياء... ولكنها لم تزل فقيرة... لو كانت تريد المال كانت ستحصل عليه ولكنها إنسانة... كيف أصفها... صاحبة مبدأ.

بدا على إسماعيل التردد ثم قال: لا أصدقك.

قام أشرف في لامبالاة ثم قال: صدقني يا إسماعيل... ماذا تدرس الآن؟ اسمك إسماعيل أليس كذلك؟ عندما تنتهي من دراستك أتمنى أن نعمل معًا... هل تحب الفستق يا إسماعيل؟ هيا خذ بعض الفستق علشان يبقى عيش وملح!

أخرج بعض الفستق من درج مكتبه وأعطاه كيسًا مليئًا بالفستق.
لم يأخذه إسماعيل.

ربت أشرف على كتفه وقال: خده يا أخو لبنى وتعال اتغدى معايا وأنا ححكيلك عن قوة أختك وصراعها ضد الظلم والفساد وإنت كمان عندك ميول سياسية!

بدا إسماعيل بسيطًا وفقيرًا وصاحب كيف!

و بعد أن أكل مع أشرف في المطعم الفاخر قال أشرف: الآن أريد أن أرى بيتك!

سار بسيارته وسط إمبابة وهو ينظر حوله كطفل يرى حديقة الحيوانات لأول مرة... والآن بالذات صمم على الذهاب مع إسماعيل... لأنه اليوم بالذات كان يريد لبنى... وكأنه يلعب لعبة ما ويكسبها أيضًا. كان يشعر تجاهها بشوق غريب عليه.

نظر حوله للبالوعة التي أغرقت الشارع والناس لا تبالي. تسير في استسلام. الملابس المهرولة معلقة في البلكونات تنم عن بيوت فقيرة كل الفقر... المباني شبه المشيدة على وشك السقوط في أية لحظة!

نظر إلى البيت القديم والسلم الحجري القديم الضيق ووضع يده على أنفه حتى لا يشم رائحة العفن التي تملأ المكان!

ودخل بيت لبنى!

والحائط لم يكن فقط متسخًا بل مهدمًا أيضًا ولونه البني غامض ينم عن حياة طويلة وشاقة ومليئة بالعفن!

أما رائحة طعام أم لبنى... فلم تترك أنفه لسنوات ولم يأكل يومها.

عندما دخلت لبنى نظرت إليه في فزع! فابتسم وقال: جئت لأقابل عائلتك وأعتقد أننا أصبحنا أصدقاء أنا وإسماعيل... أليس كذلك يا إسماعيل؟

* * *

قالت لبنى في قوة وهي تجلس بجانبه في سيارته: ما رأيك في بيتنا؟

ابتسم وقال: فظيع! كيف تعيشين فيه؟!

قالت وهي تزعم الغضب: ألن تجاملني حتى! وما هذه العلاقة بأخي؟ تريد أن تدنسه؟ إنه مثال للطالب المجتهد هو وأمثاله سيغيرون كل شيء.

- نعم.. مثال للشاب المكافح... كم مصروفه في الشهر؟

قالت في فخر: أنا أعطيه مصروف كل شهر.

قال في تهكم: هل جننت يا لبنى؟ أحقًّا تعتقدين أنه مثال للطالب المثالي!

قالت في إصرار: نعم.. ربما يفعل بعض الهفوات ولكنه على الأقل ليس غنيًّا ينعم بمال غيره!

- هذا حقد إذن!

صاحت في عصبية: تعتقد أنني أحقد عليك أم على الأغنياء؟

أوقف السيارة وقال في ضيق: لا أدري.. هل يمكن أن نغير الموضوع... اسمعي فلنذهب إلى مكان هادئ نشرب شيئًا، ما رأيك؟

هزت رأسها بالإيجاب فتوقف عند كافيتيريا على النيل وسار وهي وراءه. هزت قدميها كعادتها وهي تجلس ثم همست فجأة: تحتقر الفقر!

- لا أحبه.

- تحتقرني إذن؟

- أحبك.

نظرت إليه في شوق فجأة وهمست: لم تقلها من قبل... أحقًّا تحبني؟

قال في جدية: نعم.. لم أحب أحدًا هكذا من قبل.

قالت مسرعة: لم تطلب مني الزواج.. لماذا؟

همس في رقة: لا أدري، كنت أنتظر يومًا ما...

- و لكن إذا كنت تحبني ألا تريد العيش معي للأبد؟

قال وهو يحملـق في المياه: لا أدري إذا كنت أريد العيـش معك للأبد أم لا ولكني أعرف أنني أحبك... وأريد تحقيق كل أحلامك سوى حلمك بدولة شيوعية.

قالت لأول مرة في شيء من الضعف: لن تستطيع أن تحقق أحلامي. أحلامي لا يستطيع فرد أن يحققها ... أشرف.

- نعم.

- هذا المكان ممتلئ بالأغنياء وهذا الشاي غالٍ جدًّا وأنا أريد عدالة اجتماعية. بثمن هذا الشاي يمكنك أن تفتح بيتًا مصريًّا لمدة يومين. خمسة جنيهات لكوب شاي! هذا ظلم... والظلم لا يستمر.

تنهد وهو يقول: أتمنى يومًا أن أستمتع بشيء معك. أي شيء.

في الثانية صباحًا تركت لبنى ثابت بيت أشرف والشوق بينهما لم يزل مشتعلًا ولم تعد إلى بيتها، وظلت والدتها تبحث عنها أيامًا، وبدأ أشرف يقلق من عدم اتصالها به، ولم يمر الكثير حتى عرف أشرف أن حبيبته كانت من ضمن المعتقلين السياسيين ولم يكن يدري ماذا يعني هذا! كل ما شعر به هو غضب وازدراء وبعد يوم واثنين شعر بإحساس جديد لأول مرة... شعر بالعجز!

لم يشعر يومًا بأنه عاجز كما شعر الآن... وكل هذا الحب في قلبه لتلك البنت المصرية. كل هذا الشوق.

* * *

- 4 -

بدا عليه التوتر الشديد وهو يتكلم مع إسماعيل: ماذا تعني: لا تعرف أين هي؟ في أي سجن؟ ماذا يفعلون بها؟... لن تترك أختك هكذا.. فلتفعل شيئًا.. سأفعل أنا شيئًا.

نظر إليه إسماعيل في شيء من التأثر، شيء من العجز ولم ينطق.

خرج من عمله..

لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًّا... يومًا ما تختفي هكذا بلا كلمة

أين الآدمية!... أين الحقوق؟!

ذهب إلى بيته... ارتدى بدلته الأنيقة، والحنق يدغدغ صدره ثم خرج ليقابل لواء كبيرًا كان قد سمع اسمه مرة من صديق عائلة خالته، وكان هذا اللواء في ذلك الوقت أحد مساعدي وزير الداخلية. طلب من السكرتير مقابلته على أنه من السفارة البريطانية في القاهرة. وأنه جاء برسالة من السفارة، وهنا أخرج أشرف جواز سفره البريطاني.

دخل على مساعد الوزير، وقال في قوة: أين لبنى ثابت؟

نظر إليه الرجل في ذهول: من تكون هي؟ ومن تكون أنت؟

- هي صحفية، وأنا إنسان ولا أدري كيف يتم القبض على إنسان لمجرد أنه يفكر، لمجرد أن عنده فكرًا مختلفًا.

نظر إليه اللواء، أطال نظره له ثم قال: كنت تكذب. أنت لست من السفارة... ولكن عندك جواز سفر بريطاني لهذا خدعتني.. أرجوك اخرج من هنا دون شوشرة.

قال في قوة: فقط أريد أن أفهم.

- إنك مجرد مواطن مصري مزوِّر إذن! ليس عندي وقت للمزوِّرين. اخرج قبل أن أتخذ معك إجراء قانونيًّا.

- لماذا؟.... لماذا القبض عليها؟

- نرفض التدخل الأجنبي في شئوننا الداخلية.

- كنت تتكلم معي على أنني مصري.

- أنا لا أعرف من هذه الفتاة. إذا تم القبض على أي شخص فهذا لأن هذا الشخص يثير القلقلة في وقت نحتاج فيه إلى تكاتف قوى الشعب لنصل إلى السلام.

- و ما شأن لبنى بهذا؟

- لا أدري ما شأنها، ربما تنادي بسياسة معادية للسلام. ربما تنادي بفكر منحرف. على كل حال نحن في مرحلة حرجة الآن، وسلامة الوطن أهم من كل شيء وكل المسجونين سيفرج عنهم بعد قليل.

- لا أعرف حتى أين هي!

قام الرجل قائلًا: ليس عندي وقت. من المؤكد أنها مع بقية المعتقلين، وسوف يُسمح بالزيارة قريبًا. أرجوك أن تخرج من هنا.. تفضل!

كان لقاءً قصيرًا وعقيمًا، وعندما خرج أشرف كان الغضب يخنقه، ونظر إلى جواز سفره البريطاني والآخر المصري، وشعر بحيرة غريبة وكأنه لسبب ما يشعر بمصريته كما لم يشعر بها من قبل.

***

وهل الاستمرار في الحياة ضرورة أم واجب؟

لا أدري.

ولا يدري أشرف.

كان يجلس أمام التليفزيون يشاهد سباق السيارات، وعيناه تخترقان الشاشة اختراقًا هامشيًّا غير مؤثر. لم يكن يرى شيئًا.

كان عقله يصور له صورًا مقززة ومخيفة عن حال لبنى في سجن النساء بطرة، حال الحمامات وحال الطعام والروائح الكريهة والحَرِّ والذل.. كل الذل.. كل هذا الذل.. وهو يقف عاجزًا ولا يستطيع مساعدتها.

أمسك بطبق الفستق.. نظر إليه نظرة جوفاء ثم سكبه على المائدة.. حملق في الفستق وهو يتناثر حوله.. كل فستقة تختارمكانًا جديدًا، وشعر بوحدة مخيفة ذكرته بوحدته أيام صباه وطفولته.. وحدته في المدارس البريطانية وشعوره بعدم الانتماء لأي شيء، وكل شيء، وتحولت وحدته مع الأيام من حالة يكرهها إلى حالة يعتادها، ومن حالة يعتادها إلى حالة يحبها، وكان يشعر أن هذه هي عادة كل الحالات الإنسانية! تمر بالمراحل الثلاث: الكره ثم الاعتياد ثم الحب. مثلًا أنا كنت أكره علم الآثار.. اعتدت دراسته،

وأصبحت الآثار تستهويني. ولكن شتان بيني وبين أشرف! مسكين أشرف كان يشعر بطاقة غريبة وسخط على كل شيء!

و عندما رن جرس الهاتف أجاب في صوت قوي: نعم.

- أشرف حبيبي.

كان صوت أمه محشرجًا بالبكاء.

- ازيك يا ماما.

- عامل إيه يا حبيبي؟.. أشرف!

صمتت خالتي والدموع تتساقط، وصمت أشرف.

- أشرف.

- نعم.

- مالك يا حبيبي.. عرفت عمايل أبوك طبعا! أشرف تعال يا حبيبي.

- قريب يا ماما.. جاي قريب.

- لوحدك يا أشرف.. فاهم.. تيجي لوحدك.. أنا محتجاك يا حبيبي.. سيب البنت الكافرة دي وتعال. متضيعش مستقبلك.. قلبي بيتحرق عليك.. هي لسه بتيجي عندك البيت؟

لم ينطق.

قالت في غيظ: اوعى تكون بتحبها! هي دي أول واحدة! فاكر إميلي وغيرها وغيرها، ونسيتهم كلهم. حتنساها، وبعدين لو عايز تتجوز عندك وفاء بنت تصونك وتربي أولادك.

تنفس الصعداء ثم قال في هدوء: ادعي لي يا ماما.

- بإيه يا حبيبي.

- كل شيء.

- أشرف.. البنت دي عندك؟

قال في قوة: البنت دي في السجن.

- آداب طبعا!

- سياسة!

- طبعًا آداب.. عايزتتجوز واحدة رد سجون؟ أشرف حبيبي..

لم يقل لأمه إنه يريد الزواج منها، ولا يدري كيف عرفت، ولكنه كان يريد الزواج منها. الآن يريد الزواج منها.

ولكنه لم يتناقش مع أمه، وكان يؤلمه صوت بكائها، يشعره أيضًا بالعجز.

وكان يكره السياسة والفقر والزحام وإمبابة وكل شيء ماعدا هي!

* * *

أحاط وجهه بيديه، وهو جالس في بيت خالته؛ كالعاجز عن الحركة.

ابتسمت لنفسي وتمنيت ألا تخرج لبنى من السجن أبدًا... هذا جزاء المرأة المستهترة.

همست أمي: أشرف لا يمكن أن تبقى في هذه الحالة للأبد، لقد مر شهر، لا أحد يدري كم ستبقى في السجن. عليك أن تعود إلى عملك. لقد حاولت، فعلت كل ما في استطاعتك!

هز رأسه بالإيجاب. نظر إلي فجأة، ولم أستطع أن أمنع ابتسامتي أن تخرج. راحة غريبة شعرت بها. والله الواحد حرام يفرح في الناس لكن البنات الصيع يستاهلوا الحرق!

لم يخاطبني، ولم يخاطب حتى سالي، كان صامتًا بائسًا، ولماذا أسعدني هذا؟ لا أدري! مع أنني كنت أحبه، شعرت برغبة جامحة أن أرى عذابه خاصة أنه لم يشر ولو إشارة إلى هذا اليوم في حجرتي... وكأنه لم يمسسني، وكأنه لم يفعل شيئًا! وكأنني كنت قد دثرت نفسي في أحلام اليقظة من جديد.

عدت إلى حجرتي وألقيت بجسدي على السرير، وغطست في بحر أحلامي اللذيذ.

و لكن مشكلة لبنى جعلت الحلم أجمل اليوم، وكنت أنا على صواب. كل مبادئي انتصرت في النهاية. الخير دائمًا ينتصر. تنهدت في دلال وأنا أدس رأسي في الوسادة وأتخيل حبيبي يهمس لي: أحبك يا وفاء. أحب براءتك وإيمانك وجمالك وكل شيء فيك... أحب رجفتك عندما أقبلك، وخجلك عندما تنظرين إلي. أحب عذريتك وصفاءك... أنت الوفاء بعينه!

* * *

و لكن أنتم تعرفون القدر غادرًا! لماذا يتهم بالغدر؟ لا بد أن هناك سببًا. عندما كنت أستمع إلى مكالمات أختي الصغيرة مع حبيبها كنت أغار وأغار، ويعتصرني شوقي إليه، وفي يوم ثلاثاء... أعتقد أنه يوم ثلاثاء... كنت أسمع من جديد همسات حب من سالي... خرجت من غرفتي، وسرت على أطراف

أصابعي إلى غرفة الجلوس حيث التليفون، وقلبي يخفق، وأنا أسمع: ليتني أبقى معك للأبد... طبعًا بحبك مدحت! حبيبي.

فتحت عيني أكثر وأنا أدقق في الصوت وأسمع الاسم لأول مرة.... لم تكن سالي... كانت أمي!

لا أحب الكلام في هذا الموضوع، ولا أحب أن أتذكره، ولكن لا بأس.

انتفخ وجهي. شعرت بوجنتي؛ كجمرة النار... ما سمعته الآن لا يمكن أن يكون حقيقة... لا بد أنه حلم من أحلامي... بالطبع حلم من أحلامي... وانهار صرح مبادئي بسرعة مذهلة فمعلمتي خائنة إذن!

من أرسخت بداخلي مبادئ فارغة هي في الحقيقة منافقة ومخادعة!

سأواجهها وأحذرها... ولن أحترمها بعد الآن، لا يوجد أي سبب في حياتها لهذه العلاقة الشنعاء مع من؟ مدحت الضابط الكبير بالطبع... مدحت صديق العائلة! سأفضحهما معًا!... ربما هي علاقة بريئة... نعم الظلم وحش... بالطبع هي علاقة بريئة... ماذا قالت؟ إنها تحبه... هذا لا يعني شيئًا... إنها...

سرت في خطوات بطيئة إلى حجرتي، وسقطت على السرير لألتقط أنفاسي... كنت أريد أشرف... أحتاج أشرف.

لم أفكر . سرت إلى التليفون. نظرت له في خوف وكأنه شبح سينقض علي في أية لحظة. لم تكن أمي في الحجرة.... طلبت الرقم وشفتاي تتحركان بسرعة وكأنني أتمتم بأغنية ما... همست في ترجٍّ عندما سمعت صوته: أريدك الآن أرجوك!

قال في دهشة: هل هناك مشكلة يا وفاء؟ أنا في البنك الآن.

قلت في ترجٍّ: أرجوك يا أشرف... أرجوك.

قال في تردد: حسنًا.

فتحت فمي في ذهول، وشحب وجهي من جديد، وتقلص شيء بداخلي للأبد. ذهبت إلى المطبخ. قالت أمي في هدوء عندما رأتني: اغسلي المواعين يا وفاء لحسن بابا زمانه جاي.

تحاشيت عينيها. أمسكت بسكين باردة، وخرجت من المطبخ إلى حجرتي... ماذا أقطع؟... لا بد أن أقطع شيئًا.... بدأت في تقطيع أوراق من الكتب الثقيلة... لم تشف غليلي!

غرست السكين في مكتبي ثم في الخزانة... لم يشف غليلي...

كنت أريد أن أغرسه في مكان طري وحيّ وطازج ومنعش، كنت أريد أن أشعر به.... أستريح به.... أتشبث به.... غرزته في ذراعي... لم يسل الدم... كانت سكينًا باردة... بدأت في إتقان تقطيع ذراعي في بطء، والألم يريحني كما لم يرحني شيء من قبل.... توقفت بعد برهة وأنا أرى الدماء تخرج من مخبئها في بطء وحرفية كما يخرج النمل من بيته....

دفنت السكين داخل وسادتي وسقطت على السرير في انتظار أشرف... لم أبك.

دخلت سالي، كانت تتكلم بسرعة وفي حماس، وأنا أتزعم النوم... لم انطق.

دق جرس الباب أخيرًا... ففتحت سالي في فرح، وصاحت لأمي: أشرف يا ماما!

انتفضت من مكاني.. خرجت من الحجرة.. نظرت له في استجداء منقذي وحبيبي.. التقت أعيننا، فابتسم في افتعال، وقال لسالي: ممكن شاي يا سالي.. لحسن المسافة كانت طويلة قوي.

جرت مسرعة، فدخل هو حجرة الصالون وجلس على المقعد في انتظاري... خلعت قميص النوم، وارتديت بلوزة بيضاء تغطي ذراعي وذهبت إليه ....

نظرت له ... أغلقت الباب، وهمست في صوت ميت: أشرف.

رأيت عينيه تتجهان إلى ذراعي فجأة، إلى نقاط الدم التي بدأت تمتصها البلوزة البيضاء ثم قال في تجهم: لماذا فعلت هذا؟

كنت ألهث الآن.. تجاهلته ثم قلت: خالتك... خالتك يا أشرف... عليك أن توقف خالتك... ساعدني أرجوك!

تفحصني وكأنه لا يدري عن ماذا أتكلم، وكأنه يحاول فهمي، ثم قال فجأة وهو يبتسم في مرارة: اهدئي أولًا... اهدئي.

جلست وقلت في استسلام: حاضر.

قال في فتور: تعرفين علاقتها بمدحت الضابط!

شهقت في فزع وإحباط: كنت تعرف!

تنميل غريب في أطرافي ... كان يعرف، ولم يفعل شيئًا!

همست في ألم: لماذا لم تفعل شيئًا؟ لماذا؟.. كيف عرفت؟ وما مدى العلاقة.. ؟ أشرف..

قال في اقتضاب: لا يمكن في هذه الحالات أن تفعلي أي شيء.... كان واضحًا يا وفاء.. علاقة والديك ليست بالعلاقة المثالية، ألم تلاحظي هذا؟

اقتربت منه، أمسكت بطرف مقعده، وقلت: هددها.. أوقفها... سأقول لأبي... سأفعل!

قال في صرامة: لا يمكنك أن تفعلي هذا. فقط اهدئي لو واجهتِها فستنكر، وربما تتمسك به أكثر... أغمضي عينيك حتى يمر سرب البقر الوحشي. هل تفهمين ما أقصد؟ ستحترق رغبتها فيه قريبًا، ويعود كل شيء كما هو.

صرخت فجأة في احتقار: رغبتها فيه... يا إلهي... إنها خالتك... هل تظنها على... على علاقة به إلى هذا الحد؟

ابتسم في تهكم: نعم إلى هذا الحد.

قلت في حماس: ربما تحبه فقط، ولكنها تقاوم. ربما لن تفعل أكثر من الكلام معه.

نظر إليَّ، وكأنني طفل ساذج ثم قال في لهجة قوية: وفاء.. عندما تحب المرأة لا تقاوم.. خاصة إذا كانت متزوجة.. هل تفهمين؟

قلت في حيرة: لا أفهمك... جئت من بلاد تغمض عينيها عن الخيانة والغدر!

قال في حدة: سنبدأ التجريح، وسأرحل ... أنا لست هنا لأدافع عن نفسي. والدتك أخطأت ولكنك أنت لن تحاسبيها. هذا أمر لا يخصك أصلًا! هذه علاقتها مع زوجها، وأنت لا تعرفين شيئًا عن علاقتها مع زوجها!

دخلت سالي بالشاي وهي تبتسم: اتفضل يا أشرف عايز....

هنا لأول مرة... انهمرت الدموع من عيني... نظرت إليَّ سالي في فزع، فقال أشرف: اذهبي الآن يا سالي، وأغلقي الباب. ولا تتنصتي.. سأعرف!

نظر لي وأنا أبكي، ولم يتحرك.. فقط قال: لماذا تبكين الآن؟ لماذا تعذبين نفسك؟ قلت لك: هذه ليست مشكلتك وأمك ليست قاصرًا، وإذا أخطأت فهذه ليست مسئوليتك... اهتمي بدراستك، وانسي هذا الموضوع.

أخذت أمسح دموعي بظهر يدي، فنفخ في ملل ثم فتح ذراعيه قائلًا في شيء من الحنان: وفاء... تعالي هنا.

حسنًا... هذا بالتأكيد ليس حلمًا... لقد طلب مني أن أدفع بنفسي بين ذراعيه... فعل... سمعتها بأذني... فعل... حلم كنت أحلم به كل يوم... أصبح حقيقة... يريدني بين ذراعيه... القدر ليس بهذا الغدر إذن!

اختلطت الأمور علي لثوان ... كل الألوان، وكل الروائح، وكل الأحداث... وفقدت الثقة في كل شيء... لم أكن أريد سوى ذراعيه!

ربطت نظري بالأرض، وتوقفت دموعي، فهمس في حنان هذه المرة: وفاء... تعالي هنا.. أنت تحتاجين إلى حضن صديق...

صديق.... هل قال صديق؟ الغادر! صديق! ماذا يعني حضن الصديق هذا... حضن أمريكانى يعني! مثل الذي نراه في التليفزيون! الخائن!

وكأنه أيقظني من حلم جميل، أخذت أحرك رأسي يمينًا ويسارًا وكأني أوقظ نفسي من جديد ثم قلت في حزم فجأة: لا... لا أستطيع.

ألقى بذراعيه على المقعد، وقال في هدوء: حسنًا... أعتقد أنه من الأفضل أن تتجاهلي هذا الموضوع، أنا متأكد أن أمك ستنهي هذه العلاقة قريبًا من أجلك ومن أجل إخوتك ووالدك، وهذه ليست نهاية العالم فقط تعلمي من أخطائها... أنا مثلًا والدي كان متعدد العلاقات، ولم يزل متعدد العلاقات، أشعر بالشفقة على أمي، وأحيانًا بالحنق على أبي، ولكن هذا ليس في يدي، وهذه ليست مسئوليتي أنا لست مسئولًا عن العالم. على أي حال هذا سيعلمك أن تتروي قبل أن تقيمي أي علاقة مع رجل، وأن تكون عندك فكرة واضحة عن أهداف هذه العلاقة ونتائجها مع أنني متأكد أنك ستتروين.

قام وهو ينظر إلى ساعته: وفاء عليَّ أن أذهب الآن. فقد سمحوا لي بزيارة لبنى أخيرًا...

قلت في حدة: تكلم معها... أنت.. واجهها أخبرها أنني أعرف كل شيء.

- لن أهددها قلت لك هذه الطريقة سخيفة، ولا تؤدي إلى أية نتائج.

- هددها وإلا سأهددها أنا، وأهدده هو أيضًا. سأفضحه عند وزير الداخلية وعند كل زملائه وعند زوجته وأولاده. لا تظنني ضعيفة، ربما أبدو ضعيفة ولكن عندما يحاول أحد أن يحطم مبادئي...

اتجه إلى الباب وقال من جديد: اهدئي وسوف أفكر ... سأفكر في الموضوع، وأتصل بك في الأسبوع القادم.

- اليوم... تكلم معها اليوم!

- اسمعيني... فلنعطها الفرصة لتقطع هي هذه العلاقة.

- و لو لم تقطعها!

- أعطها فرصة شهرًا أو اثنين...

- لا أستطيع.

فتح الباب، وقال: هذا رأيي... وبالمناسبة... أعتقد أنك تحتاجين الذهاب إلى الطبيب...

بلعت ريقي في خجل من نفسي، فقال في صوت لا ينم عن أي مشاعر: هذه أول مرة تفعلين هذا؟

لم أجب.

قال في قوة: تحتاجين عرض نفسك على طبيب.. هذه ليست مشكلة.. كلنا نمر بأزمات يا وفاء، المهم أن تعرضي نفسك على طبيب نفسي.

وخرج... وأغلق الباب... وما إن خرج من حجرة الصالون حتى أمسكت أختي بذراعه، وقالت في فضول: ماذا جرى بينك وبين وفاء؟

نظر لخالته وهي تجهز الغداء في أوتوماتيكية ثم قال لسالي: وفاء عندها مشكلة في الكلية.

ثم نظر لسالي وابتسم قائلًا: كيف حالك؟

قالت وموضوع وفاء قد تلاشى من ذاكرتها: قابلته أمس.. أنا بحبه قوي يا أشرف.

قال في نفس واقعيته: كويس.. يا رب تحبيه على طول..

قالت في حماس: وفاء لم تعد تتجسس عليّ أو حتى تهتم بهذا الموضوع.. تغيرت كما قلت.

قالت أمي وهي تضع آخر طبق على المائدة: الغداء يا أشرف.

- معلهش يا طنط.. لازم ارجع بسرعة.

خرج أبي من حجرته وهو يرتدي جلبابه المقلم، ويمشي في خطى متكاسلة، وجلس على المائدة، وقال: تعال يا أشرف.. إحنا مشفناكش من زمان.. وكريم عايز ياخد رأيك في حاجات.

قبل أن ينطق صاحت أمي: وفاء.. ياللا.. تعالي انت حتى مسعدتنيش في حاجة!

وضع يده على كتف أمي، وقال: اتركيها يا طنط.. اتركيها هذه الأيام.. عندها مشاكل في الجامعة.

قالت، وهي تتنهد في أسى: والله يا بني تعبانة.. أهو الواحد عايش علشان العيال وسعادتهم.

ابتسم نصف ابتسامة، وقال وهو يجلس أمام سالي: نعم أعرف. أنت أم عظيمة.

ابتسمت قائلة: ربنا يخليك يا أشرف دايمًا تجبر بخاطري.

ثم قالت من جديد: وفاء!

نظر أشرف للطاولة الطويلة، ولعائلة خالته: لزوجها الذي يأكل في سذاجة، لابنها الذي يتكلم دون انقطاع كل المشاريع المربحة، ولسالي وهي تتجاهل كل شيء وتغطس في حبها، ولم يأكل ولم يتكلم كثيرًا. خرجت أنا أخيرًا من حجرة الصالون، وكل عيوني ازدراء لأمي. التقت عيناي بعيني أشرف لثوان ثم سمعت صوت أبي: وفاء تعالي كلي يا بنت.

قلت في إرهاق لا أعرف مصدره: أكلت يا بابا.

قام أشرف وهو لم يلمس الطعام، وقال: عليّ أن أعود الآن.

ثم قبَّل أمي في رقته المعهودة وكأن شيئًا لم يكن، ولم أكن أفهم كيف يفعل هذا! كيف يسيطر على مشاعر الاحتقار داخله! هذا إذا كان عنده أي مشاعر أصلًا من ناحية هذا الموضوع.

صاحت أمي: كده على طول يا أشرف... مش حتتغدى معانا؟ كل المشوار ده يا حبيبي...

خرج وتركني واقفة في مكاني أحتضن نفسي... ماذا قال؟ تعالي هنا... وأنا رفضت... وكم ندمت على هذا...

عدت إلى حجرتي، ودفنت رأسي مرة أخرى في الوسادة، وبدأت أحلم حلماً جديدًا! أشرف من جديد... جاء... أخبرته بكل ما سمعت.. بدا متأثرًا.. اعترف بحبه... قال: سوف أذهب بك بعيدًا عن هذا البيت، سنتزوج ونترك هذا البيت... أنا كفيل بأن أحميك، وسوف أتصرف في موضوع أمك... ستترك هذا الرجل... أعدك سأتكلم معه رجلًا لرجل، وسأهدده وسوف تتركه.... حبيبتي تعالي هنا في أحضاني!

قالها.... تعالي هنا... واحتضنني، وبكيت بين ذراعيه، ورحت في نوم عميق.

* * *

أصبحت هوايتي المفضلة هي إيلام نفسي بسكين باردة كل يوم مرة أو مرتين، ثم الأحلام الجميلة أما علاقتي بأمي فلا أريد أن أتكلم عنها! كانت كلما

اقتربت مني أو تكلمت معي أشعر بوغز في صدري، وتعلو دقات قلبي وكأنها على وشك أن تترك صدري، والثورة عليّ وعلى أمي! ولكن من الأفضل ألا نتكلم في هذا الموضوع... فأشرف هو المهم وهذه قصته وليست قصة أمي!

في الحقيقة لم يكن هناك اختلاف شديد بيني وبين لبنى في بعض الأشياء، فكلتانا كانت تمتاز بالجمود وعدم فهم الرأي الآخر، وبينما لبنى كانت تعيش وأنا أشاهد المسرحية من بعيد فقد كانت أيضًا تشعر بالذنب وتحاول شرح نفسها لأشرف ولنفسها طوال الوقت، وبينما هي تزعم أنها امرأة عصرية، فقد ذهبت إلى بيت أشرف، وهي تريده كما يريدها، ولم تذهب لبيته من أجل غرض بريء. كانت الشعلة تشتعل بداخلهما وهي في السجن. هو ينتظر خروجها ليمزقها بين أضلعه، ويفرغ فيها كل حيرته وغضبه، وهي تنتظر خروجها لتطفئ نار شوقها له وشكها فيه وخوفها عليه، وأشرف قد حسم موقفه وكان يعرف ما يريد.

أما أنا فبدأ الشك يساورني في كل معتقداتي، وأصبحت أقارن طوال الوقت بين عمتي وأشرف، وكأن الحرب بين عمتي وأشرف.. وكنت أريد أشرف ولا أريد عمتي، كنت كالطفل الذي يعرض عليه أبواه شراب زيت خروع وبقلاوة بالفستق والعسل! وكاد الشوق يجرني لأعطي نفسي له بلا مقابل. كنت أريد أن أدق على باب شقته وأهمس في يأس: خذني.. لأشعر بذراعيك، ولو مرة.. مرة واحدة تغمرني وأصبح قطعة منك ثم اتركني بعد ذلك لو أردت أو اقتلني.. فقط مرة! وكنت أستعيذ من الشيطان، وأحسد لبنى وأكبح شوقي، ولا أستطيع كبح خيالي. وكم احتقرت نفسي من أجل هذه المشاعر القذرة التي لا تشعر بها البنت المحترمة! واه.. هل نتكلم عن الاحترام! وعن الخيانة وعن الأم.. وعن الخوف..

* * *

قال في حتمية: عندما تحب المرأة لا تقاوم؟

ماذا كان يقصد؟ وإذا كان يعرف أنني أحبه فهل توقع مني أن أعطي نفسي له؟ نعم هذا ما يتوقعه.. نعم لهذا هو غاضب مني؛ لأنني لم أعط نفسي له.. وهل أستطيع؟

تأوهت وأنا أمسك بالسكين الباردة، ودوَّى السؤال في رأسي: هل أستطيع؟؟

و كم أريده.. أعطي نفسي له.. ماذا لو لم يكن يريدني؟ ماذا أفعل لو أرادني؟ بعد أن أعطي نفسي له ماذا سيحدث؟

كيف سأواجه نفسي؟!

وكيف واجهت أمي نفسها؟ وما كل هذا النفاق؟

لا.. فليساعدني الله، ولكنني لا أستطيع ..

لا أستطيع أن أكبح مشاعري ولا أن أعطي نفسي له.

غرزت السكين في ذراعي مرة ومرات، وصورة أمي وأشرف وعمتي علية في خيالي.

* * *

بعد أيام طلبت رقم أشرف، والحنق على أمي يكاد يخرج من أذني؛ كالدخان!

همست في ترجٍّ: هل يمكنني أن أراك؟!

قال في لامبالاة: أنا مشغول يا وفاء.. ولبنى ستخرج من السجن غدًا ربما...

قاطعته في عصبية: أرجوك يا أشرف.. أحتاج أن أتكلم معك عن أمي.. أنا خائفة يا أشرف.

قال في هدوء: أليس لديك أصدقاء يا وفاء؟ تكلمي مع صديقة.

صمت لحظات، ثم قلت: نعم ربما.. شكرًا على كل حال.

و لم أضع السماعة.

و لم يضع السماعة.

قال بعد برهة: وفاء.. تعرفين من الأفضل أن تهتمي بدراستك، وتنسي موضوع أمك. حياتك في بدايتها الآن.

قلت في تلقائية: ليتني مت قبل أن أسمع ما سمعت!

ابتسم وقال: تعرفين عندما كنت صغيرًا، كنت أحلم كل يوم أن أمي قتلت أبي ثم جلست بجانب جثته تبكي. أنا أعرف مشاعرك وأعرف الشعور بالضياع الذي يجتاح الإنسان لو أصيب في والديه.. أعتقد أنها إصابة من نوع ما! أحيانًا وأنا طفل كنت مثلك أشعر باليأس والخوف، ولكنني لم أتشبث بفرد واحد.

قلت في حماس: بماذا تشبثت؟

- لا أدري.. ربما بنفسي.

وكان قد فتح نفسه لي للمرة الأولى، وكانت سعادتي لا توصف، وكان حماسي وأملي في تزايد مستمر.

قلت في فضول: والآن؟

صمت لحظات ثم قال: أتشبث بنفسي فقط.. هذا ما تعلمته في بريطانيا، إذا لم تساعدي نفسك فلن يساعدك أحد.. هكذا يقول كل من حولي في بريطانيا.. يمكنك أن تساعدي نفسك.

قلت في تأثر: لا يمكنني أن أساعد نفسي مادامت هي تراه وتقابله.

قال في حسم: كل علاقة ولها عمر محدد!

قلت مسرعة: حتى علاقتك بلبنى؟

ابتسم وقال: حتى علاقتي بلبنى!

- ألا تؤمن بالحب الأبدي.. المرأة خلقت لتخلص وتحب وتعطي.

- ربما.. لا أدري ولكن الرجل لم يخلق من أجل الأسباب الثلاثة هذه.

كان جادًّا ربما للمرة الأولى. وربما للمرة الأخيرة. وكان يتكلم معي كأنه يعرفني. وربما ندم بعد ذلك.. لا أدري.. ربما نسي كلماته.. لا أدري.

ساد الصمت برهة ثم قال في رفق: وفاء خلي بالك من نفسك.. سأراك قريبًا!

تنهدت وأنا ألقي بنفسي على الوسادة.. لو أعطاني الفرصة لأثبت له ما هو الحب! لو أعطاني الفرصة!!

* * *

دق على الباب، ولأول مرة يشعر بكل هذا التوتر... ماذا حدث لها؟ هل تعذبت؟ ... لم ولن يستطيع العيش بدونها من الآن. فتحت أم لبنى، وقالت في أسى: أهلًا يا بني، لبنى في حجرتها.

لم ينظر للأم ولا لإسماعيل الجالس على الأريكة القديمة في الصالة، ولا للحائط القديم. فقط دخل إليها، فتح الباب الخشبي البني القديم، ودخل إليها... كانت جالسة على طرف السرير تسند خدها براحة يدها في صمت... كان سريرًا حديديًّا، وكان يرى وجهها من بين الأعمدة الحديدية، وكأنها لم تزل داخل القضبان... نظر لها لحظة ثم اقترب منها، وهمس في مرارة: لبنى..

لاحظت وجوده فجأة، فقالت مسرعة: أشرف..

لم تتغير، عيناها قويتان، وواثقتان، ونظرتها غير مستقرة، ولكن هناك شيئًا من الانكسار في نظرتها، وقدماها تهتزان بدون توقف.اتجه إليها، ألقى بها بين

ذراعيه، وضع رأسها على كتفه وهمس: وحشتيني... ماذا فعلوا بك يا حبيبتي، احكي لي عن كل شيء.

فتحت فمها لتتكلم، فأكمل وهو يزيد قبضته عليها: سنتزوج... اليوم وسوف نغادر هذا المكان، ولن أرى الألم والانكسار في عينيك أبدًا.

أراحت رأسها على صدره، وقالت في فرح: لم أكن متأكدة. طوال هذه الفترة وأنا لا أدري أتحبني أم لا...

أبعدها عنه بعض الشيء ثم قال: ماذا فعلوا بك؟

قالت في هدوء: سألتني من قبل.. لا شيء.

- أريد الحقيقة.

- صدقني لا شيء فقط مهانة البقاء في السجن كانت تكفي!

- سوف أعوضك عن كل شيء... من اليوم سوف...

أكمل فجأة في صرامة:لبنى ستتركين السياسة للأبد.. من اليوم. وسنتزوج ونرحل وأبدًا لن أسمع منك كلمة عن السياسة.

لم تنطق..

شعر أخوها بحمية الأخ على أخته فدق على الباب.. لن يترك الباب مغلقًا هكذا مهما كان إعجابه بأشرف. قام أشرف وما إن همّ إسماعيل بفتح الباب حتى أغلقه أشرف من جديد في شيء من الحقد على كل الناس قال: لا تدخل الآن!

ابتسمت وهمست: تحبني.

قال في غيظ: تعرفين الإجابة... هل فهمت ما قلته... ما تقولينه وتفعلينه لن يغير شيئًا، ولن يساعد أحدًا. غضبك موجه في اتجاه خاطئ، غضب بداخلك لا أدري لمن!

قالت في حماس: للظلم.

جلس أمامها وقال في رقة: لن يظلمك أحد.. مادمت أنا معك سنحيا معًا ستستمرين في الكتابة، وستنسين كل هذا الهراء، وكل الأفكار الشيوعية البالية!

قالت في غضب: أفكاري ليست بالية. أفكاري ستغير المجتمع لم أدخل السجن وحدي، كل من عنده فكر -أي فكر- يدخل السجن.

تنفس الصعداء ثم قال، وهو يحاول أن يبدو هادئًا: فلأشرح لك في هدوء... لبنى... أنا لا أحب هذه التجارب والمغامرات، ولا أعتقد أن أي فكرة تستحق الموت أو السجن أو حتى المجهود، وبما أن العالم يحركه الرأسمال، فالأقوى هو الذي يملك أكثر، وأنت الآن تتعذبين هباءً وتعذبينني معك.

قالت مسرعة: ولكنك مخطئ فهناك دول كثيرة تملك رأس المال، ولكنها ليست قوية، رأس المال ليس هو المتحكم. الغرب بجبروته هو المتحكم. أشرف لن أستطيع الآن بعد كل ما عانيت أن أترك السياسة هل تفهمني؟!

قال في حدة: لا.. لا أفهمك، وقد سئمت هذه اللعبة! عندك اختياران، تتركين السياسة وتتزوجينني، وسوف أنتشلك من كل هذا الفقر أنت وعائلتك، وسوف تصبحين أميرة يا لبنى أعدك... أو تخسرينني للأبد... لم يتبق لي في مصر سوى أسابيع هل ستأتين معي!

نظرت له، بدت مرهقة ... وضئيلة.

التقت أعينهما.. كان يشعر مرة أخرى بغلٍّ غريب لأفكارها، ولم يكن يعرف يومًا أن الأفكار يمكن أن تفعل كل هذا بالبشر ......

قال في قوة: لبنى.. ماذا تريدين؟

قالت من جديد وكأنها لعبة أطفال وبها حجر قوي لا ينتهي مفعوله أبدًا.

- أريد العدالة.... هل رأيت عدالة هنا؟!

- لا توجد عدالة لا في مصر، ولا في أي بلد في العالم. العدالة فكرة من اختراع الإنسان، فكرة لا أكثر .

قالت في قوة: وأنا لن أضحي بمستقبلي من أجلك.

ضحك ضحكة جافة، وقال في غيظ: مستقبلك! أي مستقبل هذا! هل تعين ما تقولين؟ لبنى لا يوجد عندك مستقبل، أنت تعيشين هنا؛ كالفئران في الجحور في فقر وقمع وإحباط، ولا أحد يعرف عنك أي شيء، ولن يعرف أحد أي شيء عنك، ولن يهتم الناس بأفكارك. الكل يفكر في نفسه! وأنا أعرض عليك طوق النجاة، ولكنك تفضلين الغرق!

قالت في عصبية: كل هذا الغرور! لا أريد النجاة على يدك يا أشرف.

فتح الباب في قوة، وقال: هذا آخر لقاء بيننا يا لبنى... لا أريد أن أراك مرة أخرى!

صاحت: هل كنت أتوسل إليك لأراك! فلترحل، ارحل، عد من حيث جئت، عد إلى الظلم والمال الملوث بدم الأبرياء والأسلحة والعمالة الرخيصة وكل

ما تقوم به البنوك في الخارج، الصفقات المشبوهة والسرقة والربا وكل شيء.... عدا!

لم يجب... خرج من الحجرة فأمسك إسماعيل بيده، واتجه به إلى الخارج: معلهش يا أشرف هدي نفسك وتعال نشرب حجرين.

بينما هوت هي على سريرها، وهمست لنفسها: بحبك يا أشرف.... قوي!

* * *

أخذ إسماعيل نفسًا طويلًا من النرجيلة بعد أن دس فيها الحشيش، وقال في هدوء: لا يهمك... أنا متأكد لبنى أختى تحبك، وسوف...

قاطعه أشرف في اقتضاب: نعم أعرف.

نظر أشرف في اشمئزاز للكرسي الباهت المقشر والطاولة المستديرة الصغيرة، وشم رائحة العرق التي تفوح من كل الجالسين، وشعر برغبة جامحة في التقيُّؤ. كان يشعر بالقرف والغضب، وهذا المزيج كان يقلقه!

أخذ يمسح فم الشيشة بيده، يفركه بين يديه في عصبية ثم أخذ نفسًا طويلًا وآخر وآخر....

ابتسم فجأة في مرارة ثم قال لإسماعيل: كم تحتاج... لتبدأ حياتك!

نظر له إسماعيل في دهشة ثم قال وهو يدخن من جديد: أحتاج الكثير.

أخرج أشرف دفتر شيكاته ثم قال في عصبية: خمسة آلاف مثلًا! ما رأيك؟

نظر إسماعيل حوله وقال في خوف: أشرف لا تقل هذا أمام هؤلاء وإلا مزقوك كما يمزقون الحمام المحشي!

ضحك في مرارة ثم قام قائلًا: أشعر برغبة جامحة في أن أعطيك مائة ألف جنيه، ولكني سأكتفي بخمسة آلاف... هل شعرت برغبة مجنونة من قبل؟ وكأنني أريد الانتقام منها.. ماذا تعني لي مائة ألف جنيه؟ لا شيء!

أمسك بدفتره وكتب الشيك بخمسة آلاف ثم قال وهو يشير به إلى إسماعيل: ماذا ستفعل به؟

ضحك وكأنه لا يصدقه ثم قال: أشرف هذا ليس وقتًا للمزاح.

جلس أشرف وقال في جدية: أنا لا أمزح!.

ثم مد يده بالشيك وقال:خذه يا إسماعيل وتوقف عن الحشيش حيلحس مخك!

نظر له إسماعيل من جديد في ذهول: لماذا؟

صمت أشرف برهة ثم نظر له وهمس: لأسباب كثيرة.

نظر له إسماعيل في شك ثم قال في غضب: ماذا بينك وبين لبنى؟ كنت تريد الزواج بها؟

أخذ أشرف نفسًا طويلًا من النرجيلة ثم قال: ربما!

قال إسماعيل في قوة: بنت الكلب دي أنا حربيها حتتجوزك ورجلها فوق رقبتها!

نظر له أشرف في دهشة والمشهد بدأ يستهويه ثم قال: سترغمها على الزواج بي!

قال إسماعيل في حماس وغضب: حمارة ! ترفضك أنت!

قال أشرف وهو يبتسم: كيف سترغمها؟ احك لي.

ظهر على إسماعيل الحيرة لثوان وهو لا يدري هل يمكن إرغام أخته على أي شيء!

قال أشرف وهو يلوح بالشيك: تريد المبلغ أم لا؟!

قال إسماعيل: لبنى..

قاطعه أشرف: انس لبنى.. هذا المبلغ من أجلك أنت لأنك صديق مخلص وأخ غيور على شرف أخته، وأنا أحترم الأخ الغيور.

قال في دهشة: لم تعد تريد لبنى؟ ستتزوجك.. أعدك.. سأقنعها!

قال أشرف في حزم: لا، لا تقنعها.

وضع الشيك على الطاولة ثم قال وهو يغادر: اصرفهم في الخير بس يا صديقي!

وعندما عاد أشرف إلى بيته واستلقى على سريره لم يشعر بالندم بل بالفضول الشديد.... ولم يمر يوم حتى عرف من البنك أن إسماعيل قد قام بصرف الشيك وكان هذا هو انتصاره الأخير على لبنى وإسماعيل والفقر.... المال يفعل المعجزات ولبنى التي رفضته من أجل ماله حتى تربي أخاها بمالها.... رفضته من أجل مبدأ ما.... ستندم يومًا عندما تجد أخاها غارقًا في أموال أشرف والمال يشتري كل شيء وأي شيء، والفقراء لا يملكون عفة لا تشترى هكذا كان يعتقد! وهذا ما يؤمن به! وأشرف مدلل ومغرور ولبنى عنيدة وعصبية وأنا هادئة وجبانة وأشرف كان يسيطر عليه الغضب والحقد ولم يكن يتوقع أن ترفض عرضه.. فهي أولًا وأخيرًا فقيرة وشحاذة! وتعيش

في مكان مقزز. والغضب كان يدفعه أن يسافر سريعًا ويجد امرأة أخرى سريعًا وينساها سريعًا!

* * *

أيام كان يتمنى أن تنتهي سريعًا ومنذ ترك لبنى لم نره... حتى جاء يوم ثلاثاء... دائمًا أكره يوم الثلاثاء.... جاء ليودعنا قبل أن يعود إلى بريطانيا!

قال وهو يدخل: جئت لأودعك يا خالتي... سوف أرحل غدًا...

كنت أعرف أنه سيرحل قريبًا... وكنت أتناسى هذا...

توقفت أنفاسي للحظات، دخلت حجرتي مسرعة.. وبحثت عن السكين التي أصبحت هوايتي... غرزتها من جديد في ذراعي... لم تتساقط الدماء ولكن الألم أراحني... ولو لثوان... لو يعرف كم أحبه! ربما لو عرف سيبقى... وربما سيرحل معها... وربما رحل... نعم... ربما رحل بالفعل...

سمعت صوته يناديني: وفاء...

تشبثت بالباب... كان يبدو متجهمًا... سيرحل وحده إذن... لم تنتصر لبنى...

عضضت على شفتي قلت في لهفة: أشرف.

نظر لي... نظرت لي أمي وأختي وأبي...

قلت في ارتباك: سترحل وحدك!

هز رأسه بالإيجاب... لم يبد سعيدًا... عيناه مليئتان بالأسى... من أجل أخرى... كنت أريد استجماع كل شجاعتي همست: هناك... شيء نسيته معي...

نظر لي في دهشة ثم ابتسم لخالته وقال: دقيقة... سآخذ شيئًا من وفاء.

لم يبال والدي ولا والدتي ولم يبال أحد... كأنهم يعرفون أنه لا يحبني ولن يحبني يومًا!

كنت أدق بأصبعي على مكتبي في عصبية وكان يقف أمامي.

بلعت ريقي في مرارة ثم قلت: تركت لبنى لأنها فاسقة أليس كذلك؟

قال في حزم: لا، لم أتركها لأنها فاسقة... أنا أحبها يا وفاء ولكن الظروف أحيانًا تقف عائقًا أمام الإنسان.

قلت في غضب وأنا أعبث ببعض الكتب على مكتبي: وأمي.. لم تفعل شيئًا في موضوع أمي.

- قلت لك انتظري بعض الشيء... لم يمر سوى شهر فقط انتظري...

قبضت يدي وقلت في يأس: لا ترحل... لا يمكنك أن ترحل بعد ما فعلت!

نظر إليَّ في ذهول: معذرة!

قلت في إصرار وعصبية: أنت تعرف جيدًا ما فعلته بي. هل تتذكر ما قلته لي هنا في هذه الحجرة؟

نظر لي، تفحص وجهي كأنني كائن من الفضاء ثم قال: ماذا قلت؟

بلعت ريقي من جديد كنت متلعثمة والعرق يتصبب مني كالعادة: قلت... قلت لا تخافي يا وفاء... قلت الحب جميل يا وفاء... قلت...

لم يجب. ساد الصمت برهة، ثم قال في شيء من التهكم: نعم... أكملي.

أكملت في عصبية: و... ولمستني... هل نسيت هذا أيضًا... ألم تلمس وجهي وذراعي... هل نسيت؟ أشرف!

رفع كتفيه في لامبالاة: لا أعرف عن ماذا تتكلمين... ولكني أعرف أنك تحتاجين لمساعدة.

صرخت في وجهه: تظنني مجنونة!

دخلت أمي فجأة... نظرت إليَّ في فزع وقالت: وفاء... ماذا حدث؟

قلت في عصبية: لا شيء... أرجوك اتركيني وحدي.

ابتسم لها أشرف ابتسامة مصطنعة ثم قال: اتركينا يا خالتي.

قلت وأنا ألهث وأخبط بيدي على المكتب: قلت هذه الكلمات وفعلت هذا... فعلت هذا أم لا؟! قل نعم أم لا؟!

نظر لي... ولا أدري هل شعر بالشفقة من أجلي أم لا؟ لم أفهم نظرته، ولم يجب عن سؤالي...

قلت في إصرار: فعلت هذا أم لا.

قال في هدوء: أنا آسف يا وفاء... لو كنت فعلت هذا فأنا آسف، لم أكن أعرف أن...

قاطعته: لا تقل لو... اعترف!

ابتسم ثم قال: أنتم في مصر تحبون الاعترافات ولكن الاعتراف الذي يأتي بهذه الطريقة يفقد رونقه! والانتصار أيضًا يفقد رونقه لو جاء بهذه الطريقة!

تنهدت وقلت وأنا أحاول السيطرة على الرعشة التي سيطرت على يدي: حسنًا... أنت تعرف أنني أحبك... تعرف أم لا.

قال في شفقة وسخرية: اعتراف جديد... أنا لست مذنبًا يا وفاء.

همست والدموع تتساقط من عيني بلا إرادة: تعرف.

قال في صرامة: أعرف أنك مغرمة بي... ولكن الحب الحقيقي سيأتي قريبًا. ستقابلين رجلًا يشاركك أفكارك ومعتقداتك وخلفيتك و...

همست من جديد: ولكنك لمستني، هل تتذكر؟... لمست ذراعي ووجهي ويدي هل تتذكر؟ لماذا فعلت هذا؟ هذا حرام... لا يمكن أن تفعل هذا إذا لم تكن تحبني.

قال في رقة: ولكن أنت تعرفين أنني كنت على علاقة بأخرى كيف ...

قاطعته: إنها عاهرة... والرجل ربما يحتاج إلى عاهرة... ولكنك تحبني أنا!

تنفس الصعداء وهو لا يدري أيكرهني أم يشفق عليَّ؟... قال في صرامة وهو يخبط على المكتب: وفاء... تحتاجين المساعدة. تحتاجين الذهاب إلى طبيب، وموضوع الحب هذا ليس أهم شيء في الوجود... وأنا سأسافر الآن.. ليس عندي وقت.. مع السلامة يا وفاء.

همست في ترجٍّ والدموع تغرق وجهي: لا ترحل، أرجوك...

قال وكأنه يتكلم مع طفل صغير: عليّ أن أرحل.. عملي هناك... حياتي هناك، ومالي هناك .

صرخت في غضب: سأنتقم منك يا أشرف من أجل ما فعلته بي!

فتح الباب ولم يجب. فقلت في ترجٍّ وأنا أتبعه بعيني: أشرف.

كان يشعر بالملل من كلماتي، وربما بدا عليّ الضعف واليأس، أمسكت بورقة وقلت في استجداء: هل سنبقى على اتصال؟

ربت على كتفي فجأة وقال في حنان: بالطبع سنبقى على اتصال يا ابنة خالتي.

انتفض جسدي وقلت في انتصار: أنت تلمسني من جديد! فعلت ! لا تكذب!

حاول السيطرة على ضحكاته ثم قال: إنك مثل أختي يا وفاء أليس كذلك!

أخذت أقلب في الأوراق، أبحث عن قلم وهو يراقبني بلا كلمة وأنا أتصرف بهستيرية ثم قلت: لا أنا لست أختك! تعرف هذا، أنا لست أختك.. أين القلم؟... هل عندك قلم؟... عندك قلم؟

وفاء.... قالتها أمي ثم ناداني أبي... وأنا أبحث عن قلم.... الأشياء تسقط من يدي وهو يراقبني في صمت ثم وجدت قلمًا فأعطيته له بيد مرتعشة قائلة: عنوانك! أعطني عنوانك!

أمسك بالورقة وكتب عنوانه وأعطاه لي قائلًا: ماذا ستفعلين؟ تراسلينني.

قلت في قوة والدموع لم تزل تملأ وجهي: نعم... هل ستجيب على رسالاتي؟ قل الحقيقة!

ابتسم في تهكم: اعتدتِ طريقة الأوامر هذه والتحقيقات، لا أدري أهو اختلاف ثقافي أم أنها شخصيتك يا وفاء؟... نعم سأراسلك ولكن بشرط واحد! وفاء...

- حاضر... دقيقة واحدة... ما هو؟

- أن تعديني أنك ستعرضين نفسك على طبيب... كل إنسان معرض أن يمر بانفعالات أكبر منه، وكلنا نحتاج إلى طبيب من حين إلى آخر.

قلت مسرعة: سأفعل.. أعدك ولكنني لست مجنونة.

قال في هدوء: لم أقل هذا بالطبع. لست مجنونة. ولكن عليّ أن أرحل الآن.

همست بلا إرادة: ضمني ...

نظر إليَّ في دهشة: ماذا قلت؟

بلعت ريقي وأنا أستجمع كل شجاعتي: ك.. كأصدقاء... كما كنت ستفعل عندما ... تتذكر كنت تظن أنني أحتاج إلى ذراعيك نعم؟... فقط كصديق كما أرى في الأفلام الأمريكية...

قال في حدة: وفاء... لن أفعل، لأنك لا تنظرين إليَّ كصديق.

قلت في استجداء: ولكن...

- مع السلامة يا وفاء.

خرج.... فتح الباب وخرج.... وتركني في حجرتي أتوق إلى ذراعيه... وأندم على الفرصة الضائعة، وأتمنى أن أكون لبنى، يا ليتني كنت لبنى...

دخل أبي ولأول مرة يبدو قلقًا: في إيه يا وفاء... في حاجه بينك وبين أشرف؟

قلت في قوة: لا بالطبع لا... ولكنني قلقة و... كنت أعتبره أخًا لي و... أنا بخير، فقط...

قال في شيء من الحدة: فقط ماذا؟...

- فقط عليَّ أن أذاكر أكثر، وأستعد للامتحان... والسفر أيضًا إلى الإسكندرية كل يوم أرهقني، أنا بخير يا أبي.

تركنى وأغلق الباب، فتنفست الصعداء، ودفنت رأسي في الوسادة، وغصت من جديد كما أفعل دائمًا!

* * *

هل تعرف هذا الإحساس؟... بأنك تريد شيئًا ولا تريد غيره، وهذا الشيء مستحيل... هذا هو القدر الغادر! تجلت لي الحقيقة كاملة... رحل... لن يعود وأنا هنا... وعليَّ أن أواجه كل شيء وحدي... أنا هنا مع مبادئي التي أكرهها... مع أمي الخائنة وأختي المحبطة وأبي الغافل عن كل شيء وأخي المدلل والعالم يجري من حولي وأنا هنا أحيا في الخيال... وأنا هنا سلبية وحمقاء... لو كنت مختلفة، لو كنت مثل لبنى، يا ليتني كنت لبنى جريئة وثورية، ولكنني مملة وغبية ومجنونة أيضًا!

لبنى عاشت الواقع وأنا عشت عامًا في الخيال، لبنى شعرت به وأنا تخيلته، لبنى قاست وتألمت وأنا آلمت نفسي بيدي وتلذذت بألمي. كان عليَّ أن أجلس مع نفسي وأحدد من أكون، وماذا أريد، أو ربما أذهب إلى طبيب كما قال أشرف... ولكنني لست مجنونة وأنا أعرف الفرق بين الخيال والواقع ولم أفقد... ربما أحيانًا فقط أحيانًا تختلط عليَّ الأمور... وبدأت أشك من جديد في هذا الحادث في حجرتي عندما لمسني أشرف ولا أدري هل فعل؟ لم أعد أدري... نعم ربما اختلط الحلم بالواقع بعض الشيء... ولكنني لست مجنونة!

* * *

عـبث

«رجل قال للكون: أنا موجود».
فأجاب الكون:«وجودك لا يخلق عندي أي شعور بالواجب».
ستيفن كران

- 5 -

ما إن رحل حتى وجدت نفسي أتابع أخبار لبنى وكأنها حلقة الوصل، بيني وبينه. كنت أريد أن أعرف هل اتصل بها؟ هل ما زال يريدها؟ ولم ألتق بها مرة أخرى، ولكنني قرأت مقالها في صحيفة معارضة وهي تسب النظم الرأسمالية! كان رأس لبنى ممتلئًا بمرجريت تاتشر وريجان والموز! كانت ترى الشيوعية تنهار بسبب الثلاثة. أكان من الضروري أن تتذوق شرق ألمانيا الموز؟ وهل يستحق الموز كل هذا الذل؟ وماذا يجرى لو عاش الإنسان بلا موز؟ يمكننا أن نعيش بلا فستق وبلا موز. ولكن لا! الخبيثة تاتشر مع حليفها الغربي كانا يسربان الموز كما يسربان المخدرات إلى ألمانيا الشرقية وإلى الاتحاد السوفيتي!

كانت لبنى ترى أشرف كتاتشر! بؤرة فساد يتسرب منها الموز والفستق وكل المنتجات الترفيهية وكل الظلم والفساد والتجارة بأرواح الناس. وآه لو تذوق شخص شيئًا كالموز؟ ألم يخرج آدم من الجنة لأنه كان يريد التفاحة! بالطبع الإنسان ضعيف، بالطبع الإنسان يريد الرفاهية! ومادام الغرب يعطي الموز في فم البشر، الموز الذي يشتريه من إفريقيا وأمريكا اللاتينية برخص التراب - فهو هو يتحكم فيهم!

من قال إن الخبز وحده هو من يتحكم في الإنسان؟ وماذا عن الفستق والموز والسيارات والشقق والرخاء؟

الرخاء كالمخدرات يسيطر على خلايا عقلك ولا تستطيع التخلص منه!

كان هناك الكثير من الوقت للندم، ولكن لبنى لم تندم في البداية. كان يسيطر عليها غضب جامح وحقد شديد على أشرف وعلى ما قاله لأخيها. تمنت لو قابلته لتصفعه صفعة تترك آثارًا في نفسه إلى الأبد كما ترك هو آثاره في نفسها.

وبعد مضي شهور بدأ الألم يطفو على السطح، وكانت هناك فجوة بداخلها لم يملأها سوى أشرف، وكان هناك بالطبع اللحظات الحميمة التي قضاها معها والتي افتقدتها، وكنت أعزي نفسي بأني على الأقل لم أعط نفسي له، وليس لدّي سوى خيال يقظ.. أما هي فكانت لمساته تتلاشى من مخيلتها سريعًا فتحاول لملمتها، وتحاول أن تملأ الفجوة بالعمل والغضب، ولكن

أشرف كان .. شيئًا آخر.. كان الحياة الدافئة. كان رقيقًا معها.. تذكرت رقته معها، وتدليله لها وشوقه وحبه.. تذكرت صرخات بينهما كانت تنتهي دائمًا بقبلات حارة بدأت مع الزمن تتلاشى من فمها. وأصبحت رائحته التي تعرفها ذكرى بعيدة، وعندما ابتعد .. بدأ الندم.

واتخذ أشكالًا عديدة.. أغرقت نفسها في العمل.. بدأت في التفكير الجدي في الزواج.. كانت تقنع نفسها أنها تفتقد الرجال وأن أشرف كان رجلًا لا أكثر والرجال كلهم رجال.. وأشرف كان غنيًّا وهذه خطيئة. ربما عليها أن تبحث عن رجل مثلها لديه هدف سام ولا يحيا من أجل متعته الشخصية مثل أشرف.

ولم يكن المال يعنيها على الإطلاق ولم تكن تحب الطعام ولا الملابس الفاخرة ولا حتى العطور التي كان يشتريها لها.

ولكنها بدأت تعشق شيئًا جديدًا.. وكان هذا الشيء يتبلور بداخلها كل يوم.. وكان هذا الشيء هو السلطة!

و شعرت بأنها تستحق السلطة وسوف تقضي على الفساد وتقيم العدالة ويومًا عندما تصبح لديها السلطة، ربما تجده من جديد.. ربما تقابله في مكان ما وسوف تكون هي الأقوى، وسوف تعذبه وتحتضنه، وتطلب منه أن يداعب خصلات شعرها كما كان يفعل، ثم ستتركه بعد أن تصفعه صفعة تترك آثارها عليه.

الفرق بيني وبين لبنى أنني أحيا مخلصة لخيالي المتوحش، بينما لبنى تحيا على الأرض وتشعر بالمآسي حولها وتفكر في قوت يومها وفي الشارع الذي تفوح منه رائحة المجاري.. كيف تحيا بخيالها ورائحة المجاري لا تترك أنفها..

وبينما كانت هي تحاول أن تلملم صورته بداخلها كنت أنا أراه أمامي كل لحظة يختلج وينبض.

ولكن لبنى كانت تعشق أشرف، وشعرت بفخر كبير لأنها تغلبت على عشقها!

الحمقاء!

أما أنا ... ف...

أمسكت بالسكـين الباردة في ازدراء... ما أكثر جبني! حتى الموت لا أقوى عليه... متفرجة... طوال عمري. ذهبت إلى المطبخ، وأخرجت السكين التي تقطع بها أمي اللحم، وذهبت إلى حجرتي... لو غرزت هذه السكين في

شراييني سوف ينتهي الأمر في ثوان .... ثم ماذا؟. كنت أخاف من عذاب القبر وعذاب الدنيا وكل هذا العذاب، وكنت أريده هو فقط!

فلأمت إذن... فأنا لا شيء.. جبانة ومجنونة! ولكن هناك أشياء صغيرة كانت تربطني بالحياة مثل عم سليم البقال وبسطرمة عم سليم البقال وزيتونه الأسود .... مثل محطة القطار والمحصل الذي ابتسم لي يومًا وقال: ربنا ينجحك يا بنتي.

كنت أراه كل يوم، وكلما رأيته شعرت بالراحة... وعم سليم والبسطرمة الطازجة ورائحة الثوم القوية.

فكرت بالطبع في قتله ولكن جبني منعني أن أقتله قبل أن يرحل وربما قلبي لا أدري. والآن أين أجده لأقتله. ربما لو هددته! نعم سوف أهدده بالقتل. ولماذا يخافني وهو يعرف جبني وعدم قدرتي على فعل أي شيء! سلبيتي كانت تتحداني وتطرق رأسي بمطرقة قاتلة!

إما أن تنتحري وإما أن تذهبي إلى الطبيب... وحدك....

ترددت كثيرًا وبعثت له رسالة واثنتين ولم يجب. كنت أتأرجح بين الحياة والموت.!

تنهدت الطبيبة ثم قالت: وبعدين!

ترقرقت الدموع في عيني: كنت أحبه، أحبه أكثر من أي شيء، ولا أفكر في سواه ولا أحلم بسواه.. ثم...

رن جرس الهاتف فقاطعتني الطبيبة وبدأت في الكلام في التليفون: آه بكرة... عايزين عزومة كويسة... إن شاء الله يا حبيبي...

وضعت السماعة ثم أكملت: وبعدين.

شعرت برغبة جامحة بصفعها صفعة قوية وعنيفة؛ لأنها لا تأبه بي ولا بمصيري ولا بأشرف داود! ولكن جبني غلبني كالعادة! أكملت في جدية:

- كان يحب صحفية شيوعية دخلت السجن ثم خرجت وانفصلا وأمي... أمي كانت على علاقة بضابط في البوليس، ولم تنه علاقتها به، ولا أريد أن أراها.

ابتسمت الطبيبة في تهكم: هذا الذي تحبينه... جاء من بلاد الغرب... ومنحل أخلاقيًّا وكان على علاقة بفتاة منحلة أيضًا، انسيه..

- لا أستطيع

- انسيه و... ربما تتخيلين هذه العلاقة... ربما لا توجد علاقة بين أمك وهذا الضابط.

قلت في إصرار: لا أتخيل شيئًا! صدقيني... سمعتها.

- تحتاجين إلى مهدئ، وتحتاجين أن تنسي هذا الرجل.

ثم تأملتني لحظات، وقالت: يخيل إليَّ أنه أكثر من رجل!

- ما معنى هذا؟

- هل لديك أي اتجاهات سياسية؟

- أبدًا أنا لا أفهم في السياسة!

- ولكني أراه الغرب بجبروته وعجرفته، وأرى لبنى الشيوعية وعلاقتهما تمثل حبًّا وكرهًا ومناورات بين الغرب الديمقراطي الرأسمالي والشيوعية....

نظرت لها في حيرة!

- و أنا؟

- أنت الشرق ولهفته على الغرب الذي لا يأبه به ولا بمستقبله... قلت لي... أشرف من؟ ابن خالتك؟ أمتأكدة أن أشرف موجود... لم يصنعه خيالك؟

- تظنين أنه إنسان خيالي... هو موجود اسألي أمي... أبي...

- و لكنك تحبين السياسة! ألديك ميول معينة؟... ما شعورك تجاه.. مقتل السادات؟ شيء فظيع أليس كذلك؟ أين كنت يوم مقتله؟ وبماذا شعرت؟ شعرت بالذنب أم بالخوف أم بالحزن؟ الغرب يقول عنا إننا نقتل زعماءنا! ما رأيك؟

قاطعتها في عصبية: أعتقد أنك لديك ميول معينة ولا أدري ما هي... أشرف إنسان أحببته ... موجود... ولا أعتقد أنه الشرق أو الغرب....

نظرت لي وكأنني أنطق كلمات بلغة لا تفهمها ولم تنطق.

ساد الصمت المتوتر لبرهة ثم قلت: ماذا عن خيالي الجامح.. ماذا أفعل بخيالي؟

قالت في رتابة: عندك رغبات مكبوحة ربما.. تتزوجين.. كل الرجال سواء، وأشرف هذا ليس طرفة. تزوجي رجلًا آخر.

قلت في صرامة: لا أستطيع ولا أتخيل غيره ولا أرى غيره. خيالي يتحكم فيَّ تمامًا.

قالت في حدة كلمة لم أنسها يومًا: اقتليه!

نظرت لها في فزع: أقتل من؟

- خيالك بالطبع.. قاوميه واقضي عليه.

- لو قتلت خيالي، فلماذا أعيش؟ أنا أعيش بخيالي، حتى الخيال تريدين حرماني منه!

- الخيال هو سبب كل المصائب. وخاصة مصائبنا نحن العرب! نحن الدول النامية.

- الخيال هو ما يبقيني. لا أستطيع قتله أبدًا.

* * *

اقتليه!

احتضنت نفسي في خوف.. كانت تريد أن تقضي عليّ هذه الطبيبة!

اقتليه!

أقتل من؟ أقتل قطعة مني؟ وماذا يبقيني لو قتلته؟ ماذا يبقيني؟

كان خيالًا قذرًا! هذا الخيال الذي أملكه! علي أن أشعر بالخجل من نفسي من أجل هذا الخيال.

وكان يبقيني وكان أغلى عندي من كل شيء وأي شيء سوى أشرف.

قذرًا أو تافهًا أو منحرفًا كان قطعة مني ولا أستطيع التخلص منه.

وماذا عندنا سوى الخيال.. حتى الخيال يريدون أخذه منا!

أنا الشرق إذن! أنا المبهورة ببلاد أشرف الكثيرة وفستق أشرف وثقافة أشرف!

إذا كنت أنا الشرق فلماذا تريد هي أن تحرمني من الخيال؟!

ولو لم يعد عندنا خيال يقظ فماذا سيبقى لنا؟ المال، العلم، العراقة، الحضارات القديمة ودار الأوبرا والبواخر النيلية والفنادق العريقة والمطاعم الغالية التي تقدم الستيك بصوص الفلفل!

ماذا يبقى لنا؟

عمتي علية وعذاب القبر وكل أنواع العذاب وقوانين الطوارئ والسيارات المرسيدس!

ماذا سيبقى لنا؟

عندما أقتل خيالي سيبقى لي الكثير..

الكثير من الخوف والقمع وسوف أطيع كل الأوامر وسوف أنفذ كل القواعد وسوف أمشي مثل الكثيرين بعيون مغلقة وقلب مغلق وخيال مذبوح رائحة جثته تفوح من قلبي!

خيالي يبقيني ويحييني..

خيالي ربما ينقذني يومًا!

داوِ بالتي هي الداء...

كنت أعرف أن أشرف أسرني للأبد ولا أدري كيف ولا بماذا، وكنت أتمنى أن أعرف يومًا!

داوِ بالتي هي الداء..

خيالي لا بدَّ سينقذني.. وكيف أستطيع أن أجذب أشرف كما تجذب حبات الفستق الأيدي الكثيرة؟

* * *

عدت إلى بيتي أكثر جبنًا من الموت وأكثر رغبة فيه.

وفي هذا اليوم .. حدث شيء غريب..

عندما دخل مسعد المتولي إلى بيته يوم الجمعة... كان يبدو مختلفًا، نظرة السخرية واللامبالاة التي لا تترك عينيه تلاشت وحل محلها نظرة جدي يستعد لحرب شرسة مع غريمه. رقبته مستقيمة على أهبة الاستعداد للمعركة، وكأن قرونه المدببة على وشك إعطاء خصمه النطحة الأخيرة والمميتة.

صرخ في زوجته فجأة وهو يدخل من الباب: أين سالي؟ أين ابنتك يا امرأة؟

خرجت من حجرتي... خرج كريم.. نظرنا لوالدنا في ذهول. خرجت أمي، نظرت لزوجها في فزع ثم قالت : في المدرسة بالطبع. لماذا تصرخ في وجهي هكذا؟

كان يبدو أن هناك معركة توشك على البداية أو النهاية. لا أحد يدري. والمحظوظ هذا اليوم كان سالي التي دقت الباب في نفس اللحظة ففتحتُ لها وقلبي على مسمع منها.

دخلت سالي.. صرخ فيها والدها: أين كنت يا بنت الكلب؟ أنا حربيكي ما دام أمك نايمة على ودانها.

تشبثت سالي بي وارتجفت ولم تنطق... كان يبدو واضحًا أن أبي قد عرف بعلاقتها بجارها ولكنها علاقة شريفة، حب يجمعهما لا أكثر ... تمنيت أن أهمس لأبي: إنك لا تفهم شيئًا... هذا لا يمكن أن يقلقك ولكن لا بد أن يقلقك شيء آخر.

قطع والدي أفكاري وهو يخلع حذاءه القديم. أغمضت سالي عينيها وكأنها تتوقع سقوط الحذاء على وجهها.... وسقط الحذاء وكان صوته قويًّا والصرخات أقوى، ولكنه لم يسقط على وجه سالي سقط على وجه أم سالي... سقط على وجه أمي وسط فزع كل أولادها ما عدا أنا... وشعرت بارتياح غريب عذبني ضميري من أجل هذا الارتياح ولكني شعرت بارتياح.

أمسك كريم بيد والده في ترجٍّ: بابا اهدأ... بابا ماما معملتش حاجة.

همست سالي وهي أيضًا تمسك بيده: والنبي يا بابا.

و لم أطلب منه التوقف... تقهقرت بعض الشيء ونظرت لوجه أمي الملقى على الأرض وشعرت بخنقة طفيفة وارتياح مخيف.

و لم يتوقف مسعد. انهال على زوجته بالحذاء وهي تصرخ، على وجهها، على كتفها، لم تستطع مقاومته وكأنه أصيب بداء القوة والغل هذا الداء العنيد.

تناثر شعر أمي الأصفر على وجهها وبدأت قطرات الدماء تنبثق من خدها. توقف الزوج وهو ينهج ثم فتح باب الشقة وصاح: عايزة تمشي روحي في داهية يا قوادة!

ثم خرج وسط بكاء كريم وسالي. أسندا والدتهما وساعداها على النهوض وأنا أشاهد المشهد في صمت، والارتياح لم يترك قلبي. دخلت حجرتي وشعور بالذنب والحيرة يمتزجان داخلي. لماذا فعل والدي هذا؟

هل عرف؟ أكان يعرف؟ ولو عرف لماذا لم يواجهها؟ غريب ما فعله والدي اليوم. لم أره من قبل ولماذا كل هذا الغضب بداخله؟ ولكنه لم يواجهها. لم يفعل أبدًا ولم تنطق هي ولم تترك البيت. وكأن هناك اتفاقًا مسبقًا بينهما وكأن كلًّا منهما يفهم الآخر.

و كأنه هو يقول: أعرف كل شيء يا منال ولن أواجهك. كرامتي لن تسمح لي...

أو ربما يقـول: لا أعـرف كل شيء ولكني أشك فيك يا منال وأحتقرك يا زوجتي.

و هي؟ لا أحد يدري أكانت تشعر بالذنب ولذا لم تترك البيت؟ أم أنها كانت تعرف عواقب تركها البيت؟ لا شيء.. لن تملك أي شيء وبالطبع لا مدحت يريد الزواج منها ولا هي تحلم بهذا.

المهم هو أنني شعرت بهذا الارتياح الغريب ولم أشعر بالشفقة على أمي بل بحب واحترام شديدين لوالدي.

و كانت والدتي تعرف. ربما تعرف السبب، ففي بيت مسعد المتولي هناك الكثير الذي يشعر به أهل البيت ولا ينطقون به. هناك حوارات صامتة تهز جدار البيت كل يوم.

قطعت أمي علاقتها بمدحت أو ربما هذا ما بدا لي ولكن العلاقة ماتت بعد قليل على كل حال.

كانت أيامي تمر في بطء كئيب وكنت أقضي معظمها وأنا مستلقية على الكنبة المذهبة في حجرة الصالون أتفحص الذهب القشرة على الكرسي المذهب حتى أصبحت أغمض عيني فأرى الذهب القشرة يشع من عينيَّ المغمضتين. وكانت الحياة تنساب من بين أصابعي ومن بين أطرافي ولم يشعر بي أحد ولم يأبه بي أحد.

وكنت أتأمل أمي في صمت وأفكر في سبب ما فعلته بنا وبأبي.

وربما كنت أعرف السبب وأتجاهله.

وكان أبي دائمًا يعامل أمي وكأنها حشرة تافهة.

وكانت نظرة التهكم والاستهتار لا تترك عينيه.

ولم أره يومًا يقول لها شكرًا.

و لم أره يومًا يقول لها نعم.

و لم أره يومًا يقول لها أي شيء.

كان يستمع لها في صمت، عيناه لا تتركان عينيها والاستهتار يتساقط من نظرته!

و كان يدير وجهه عنها دائمًا ولا يجيب إذا سألته. كانت تتكلم في حماس فلا يجيب. تتكلم في غضب فلا يجيب.

و لا أدري أكان سبب علاقتها بمدحت أنها تريد أن تشعر بأهميتها؟ تريد من لا ينظر لها في استهتار وسخرية!

أم كانت تريد أن تصبح جديرة بنظرة أبي!

ربما الاثنان معًا!

و لم أختلق لها الأعذار ولم أسامحها، ولكنني فهمت السبب مع مرور الوقت!

* * *

كان خيالي يلعب بي ويدللني ويهدهدني ويزغزغني و.. و..

و كنت أرى نفسي أعطي له نفسي من جديد وكنت أشعر بقبلاته كما لو كانت حقيقية تغرقني وتمزقني وكان رقيقًا أحيانًا وقاسيًا أحيانًا وفي وسط أحلامي كنت أراه يقبل لبنى في شوق ثم أرى أمي تقبل مدحت فأنتفض في قرف وأكره خيالي.. وكانت صورته هو تسيطر علي في النهاية وتنتصر.. ولم أزل أحسد لبنى وأكرهها..

«تعرفين يا وفاء، كلما طال بي العمر شعرت هذا الشعور الغريب بأن الناس كلهم ناس... ناس فقط... يحبون، يكرهون، يخطئون، يخونون... أحيانًا... يغارون ويعملون... سافرت هذا العام إلى تركيا والهند وإسبانيا ولم أجد إلا أناسًا. هناك أديان مختلفة أشكال مختلفة وخلافات تافهة ولكنهم كلهم مثل الأنواع المختلفة من الأرانب، في النهاية أرانب! تفهمين ما أقصد؟»..

هكذا قال أشرف يومًا وكلماته لم تترك عقلي وأنا، أنظر إلى عمتي. وهي تسبح وتتكلم والكل يقول: نعم.. نعم.

كانت عمتي علية تعشق عين الجمل وتعشق أن تحطم عين الجمل بين أسنانها وهي تتكلم. جلست القرفصاء على الكنبة المذهبة وأمسكت بعين الجمل وغرستها بين أسنانها وضغطت في قوة وأنا أنظر لها في خوف وأشعر بالشفقة من أجل مصير قشرة عين الجمل التي لفظتها من فمها في احتقار وصاحت في الخادمة الصغيرة: يا بت! هاتي المكنسة!

ثم قالت لي: البنت الشغالة دي حتموتني! بربيها زي بنتي وجبت لها لبس جديد وجزمة وكل حاجة ومش عارفة حتى تغسل طبقين وبتنام على نفسها يا وفاء زي العيال.

قلت بلا تفكير: هي صغيرة قوي يا عمتي!

- عشر سنين يا وفاء.. عندها عشر سنين، الواحدة في سنها زمان كانت تفتح بيت!

وكنت لا أرى عمتي علية تطبخ أبدًا.. أو تتكلم مع أحد.. كانت فقط تجلس القرفصاء على الكنبة المذهبة وتقوم بين الحين والآخر لتغير المفرش الذي

يغطي الطاولة في حجرة السفرة.

كان هناك مفرش أبيض بدانتلا تضعه عندما يأتي عريس لإحدى بناتها أو عندما يزورها أحد أفراد العائلة الأغنياء. والمفرش الأحمر المقلم كانت تضعه إذا زرناها نحن. والمشمَّع الشفاف الباهت كانت تضعه إذا لم تكن تتوقع زيارة من أحد.

ابتسمت لي في خبث وقالت: إيه يا وفاء.. أخبار ابن خالتك الصايع إيه!

كلماتها كانت كالوغز في قلبي.. قلت في استسلام: عاد إلى بريطانيا.

قالت مسرعة: ربنا رحمك منه! لازم تتجوزي راجل يصونك يا بنتي أنا عندي عريس مهندس في السعودية وكمان يا وفاء لازم تحضري دروس الدين في الجامع. أنا أعطي دروس الآن وربنا يكرمني ويعطيني على قد نيتي. عندكم حد بيدي دروس في دمنهور؟ إيه رأيك في العريس؟

اقشعر جسدي ولم أكن أتخيل الزواج من غيره وكأن جسدي يعرفه هو فقط ولا يريد غيره. لم أجب عن أسئلتها.

فقالت من جديد: ربنا يكرمه راجل متدين وعاقل.

قلت في مرارة: ولماذا يريد أن يتزوجني أنا؟ أنا بالذات؟

نظرت لي في دهشة ثم قالت في حتمية: يريد أن يصون بنتًا متدينة مثلك، بنتًا من عيلة، هو يعرفني ويثق بي.

قلت في يأس: عمل خيري! يريد أن يتزوجني كعمل خيري.

قالت في ميكانيكية: ربنا يديه على قد نيته ويكرمه.

لم أجب. كنت أشعر بغضب شديد ولم أنطق. وهل أصبح الزواج في هذا الزمان عملًا خيريًّا أم عملًا دينيًّا أم تضحية أم ماذا؟! وماذا في ذلك؟ ماذا في ذلك؟ عمتي سيدة كريمة وطيبة و.. لم أعد أطيقها!

قمت لأصلي الظهر.

بدأت في الصلاة من جديد ولكن عقلي كان شاردًا وكنت أشعر بعدم ثقة غريبة أمام الله وأمام عمتي وكنت أخاف من تعليقاتها ومن الشياطين الذين يصلون حولي ومن أن أخطئ ومن العقاب الشديد ومن عذاب الدنيا وعذاب القبر. كان يخيفني عذاب القبر وظلمة القبر وشياطين القبر ووحدة القبر.

سقطت دمعة من عيني وأنا أسجد على الأرض وكنت أشتاق إليه وأعرف استحالة مشاعري وهزيمتي وكنت أتمناه ولم أرتوِ منه.

وسمعت صوت عمتي من جديد: كدة غلط يا وفاء. بتصلي غلط يا بنتي. الصلاة لها أصول.

وشعرت برغبة شديدة في الضحك في جفاء فبينما الكل يتكلم عن أصول الصلاة وشكليات المراسم كنت أرى القشرة الرقيقة المزينة والتي يكمن تحتها العفن القديم قدم التاريخ والآثار. كنت أرى صالونًا مذهبًا، ذهب قشرة وعمتي كانت ست مفترية على أولادها وزوجاتهم أما أمي.. فلا أريد أن أتكلم عنها. وللحظة أصابتني نوبة من الغضب العارم واليأس المدمر ولا يوجد شيء يدمر أكثر من اليأس، فقلت في ازدراء: اسكتي يا عمتي!

نظرت لي في فزع! وهي تستعيذ من الشيطان الرجيم، فقلت وأنا ما زلت على سجادة الصلاة : من أنت لتحكمي على صلاتي؟

- أنا أكبر منك يا بنتي وأعرف عنك.. عليك أن تتعلمي مِمَّن يكبرك.. صلاتك غير مقبولة يا وفاء.

ضحكتُ في جفاء وقلت في تهكم مرير ودموعي لم تزل تنهمر: وكيف عرفت أنت أنها غير مقبولة أليس الله وحده من يعرف هذا؟

- أنا أعرف.

- لماذا؟ عندك حد بيقولك من السما؟

- أستغفر الله العظيم. كفرت يا بنت! يا لهوي!

كلماتها أسكتتني ولم أنطق.

* * *

«أرجوك يا أشرف.... فقط أجبني قل أي شيء.... لو لم تجب على هذا الخطاب فسأقتل نفسي.... سأفعل»

و لم يجب.... ولم أقتل نفسي!

ولكنني كنت على وشك أن أقتل نفسي... كنت أتامل الطريقة ووجدتها ومنعتني أشياء كثيرة كما قلت. كانت السكين في يدي أعشقها كعشقي لأشرف عشق البائس اليائس، سأغرزها في عروقي وينتهي الأمر. ولكن لو فعلت هذا... لو فعلت هذا... لن أخرج في الصباح إلى عم سليم البقال وأشم رائحة البسطرمة وأشعر بالاستياء أحيانًا وبالطفاسة أحيانًا أخرى.

ثم طنط علية عمتي سوف تفرح إذا مت.... سوف تفرح بالطبع وتظن أنني ارتكبت خطيئة ما.. لن أعطيها هذه الفرحة. وطنط عدلات قالت كلامًا كثيرًا

ملوش داعي ولم يسعفني عقلي ساعتها ولم أجب. لا بد أن أرد عليها قبل الموت بالطبع، لا بد أن أرد.... هناك الكثير الذي يجب تسويته قبل الموت.

ولكن أشرف لم يتزوج. كنت أعرف أنه لم يتزوج ولبنى لم تنتصر. وأنا هنا جالسة أنتظر في جبن.. أنا هنا أموت في بطء قاس وأعذب نفسي بسكين بارد.

ولكن إذا كان لا يزال موجودًا في مكان ما ولم يتزوج فهناك أمل. وسمعت صدى كلمات غريبة وجدت طريقها إلى قلبي فجأة:

«هل أنت مقتنعة بما تقولين، كل كلامك عن العذاب والشياطين وتفاصيل العذاب وصور العذاب.. هل عندك شيء أكبر تفكرين فيه.. شيء مختلف عن العذاب؟ تهتمين بالتفاصيل والألوان والأشكال ولكن من أنت وما علاقتك بالله؟».

كانت كلماته التي لم أفهمها وقتها. ولم أفهمها إلا عندما تذوقت عذاب الأمل المستحيل والشوق إلى رجل واحد والضعف والخوف واليأس..

كلماته التي لا أدري هل كان يقصدها أم لا.

و لكن الله كان موجودًا وقريبًا. دائمًا قريبًا، وبينما انتابني الشك أنني كافرة، وأن الشيطان قد تملكني، وأن الجنون قد تفرع في عقلي، كنت أشعر به قريبًا. وكأنه لا يعرف عمتي وكأنه لا يأبه بها وكأنه يحبني أنا.

و بدأ شعور جديد يولد بداخلي... أمل ربما... رحمة الله واسعة تسع كل شيء... كانت نظرتي للدين تعتمد على العقاب لا الثواب ولكن اليوم شعرت بثقة جديدة في أنني أنا برغم كل شكوكي وكل مخاوفي قريبة من الله. وأنه رحيم. وأن علي أن أغفر لأمي يومًا ما.. ربما.. وربما يومًا ليس بقريب.. وعلي أن أثق أنني على صواب! نعم كنت أفتقد الثقة! لم أزل أظن أن لبنى فاسدة... ولكن إذا كان هذا ما أظنه فلماذا أوضحه؟ كل منا لديه تحفظاته وتحاملاته وتعصبه ولكن لماذا نظهر الاحتقار للغير...

جاءتني الفكرة كشعاع الضوء!

وكانت فكرة متطرفة تسيطر على لبنى.. فكرة المساواة والشيوعية و.. و..

وكانت فكرة متطرفة تسيطر على عمتي علية.. العذاب والعقاب والانتقام من الكافرين و.. و..

وكانت فكرة متطرفة تسيطر عليَّ.. الخوف من عذاب القبر.

وكانت فكرة متطرفة تسيطر على أشرف.. أهمية المال.

وكل فكرة متطرفة كانت تحطم صاحبها.

وكل فكرة متطرفة فارغة وهشة.

وكل الأحداث من حولي تتغير وبينما يسيطر السطو على العالم لم أعد أخشى عذاب القبر بل أستنشق عبير رحمة الله.

كنت أجلس مرة أخرى على الكنبة في حجرة الصالون وسمعت صوت أمي يهتز لأول مرة: بِتموتي نفسك ليه؟!

نظرت لها في ذهول. لم تخاطبني منذ يوم انقض عليها أبي. كانت فقط تنظر لي في ازدراء من حين إلى آخر.

همست وأنا ألقي برأسي على الكنبة وأهتز في عصبية: أنا كويسة!

جلست وقالت ووجهها عابس: خلاص انسيه!

شعرت بخجل من نفسي ولم أنطق فقالت في غضب: يا بت ردي عليَّ يا بت! أنا مش أمك؟!

همست في ألم: أمي.

- ردي عليه! أختك عايزة تتجوز الولد اللي كانت بتحبه. ده! طلع ولد كويس. عايزاها تتجوز قبلك.

كنت أثني رقبتي وأنا أجلس على الأريكة وأهتز في عصبية وقلت في قوة: آه! خليها تتجوز!

التقت أعيننا وقالت وهي تتفحص وجهي: إنتي عايزة إيه؟ إتجننتي خلاص؟!

ابتلعت دموعي ولم أنطق.

صرخَت: عايزة إيه يا وفاء؟!

سقطت دموع من عيني ولم أنطق.

فصرخَتْ من جديد: إنت بنتي إنت! ليه بس يا رب حظي كده مع أولادي! يا رب توب عليَّ من الهم ده يا رب!

نظرت لي وأنا أبكي في صمت وصرخت من جديد وكأن بكائي يغضبها ربما يؤلمها يستفزها لا أدري: إسكتي ! إنتي طول الوقت كده! خلاص مش عايزك! افهمي بقى! خلاص انسيه!

انفجرت في البكاء وهمست: ربنا موجود!

عبس وجهها من جديد.. ظهر عليها الارتباك وربتت على كتفي في بطء وهمست: خلاص يا وفاء.. خلاص.

ثم تركت الحجرة.

لم تربت على كتفي هكذا منذ زمن.

و لا أدري أكان هناك حب في لمستها أم واجب!

جريت إلى المطبخ أبحث عن السكين. لم أجدها. ربما لم أكن أريد أن أجدها. ذهبت إلى حجرتي وهمستُ: ربنا موجود!

* * *

تزوجت أختي وكنت أرى فرحة الحب تتلألأ في عينيها. ومرت أيامي في فتور.

و كان خيالي يسلينى ويبقيني. سالي مختلفة عني. سالي جريئة وقوية ومباشرة. وكانت لديها طريقة غريبة لجذب الرجال وكانت تعشق أحمد زوجها ولكن عشقها لم يمنعها من أن تكون دائمًا هي المسيطرة على كل شيء. كان دلالها معه غريبًا وكأنها تزجره وتمنيه وعندما رزقت بالولد تنهدت في ألم وهمست: كم تمنيت بنتًا! آه ها أنا أحقق لك أمنيتك يا أحمد ولكنني حزينة لأنني أريد بنتًا!

وكأنها أعطته طفلًا على طبق من فضة وعليه دفع الثمن! وكنت أعرف أختي وأعرف أنها فخورة بنفسها لأنها أنجبت الولد، ورأيت الخوف والحب في عيني زوجها ولم أكن قد رأيت الحب في عيني رجل أبدًا ولا الخوف!

وعندما كانت تجلس في بيتها مع أحمد وطفلها بين ذراعيها والفخر يملأ عينيها وزوجها ينظر لها في ترقب وانبهار كنت أنا أتاملها في دهشة. وكنت أرى زوجها يضع يده على كتفها فتزيح يده في دلال وتقول في ضيق: سيبني يا أحمد أنا مش طايقة نفسي! ابنك ده حيموتني.. أنا إيه اللي خلاني أتجوز وانا صغيرة كده!.. ده الجواز بهدلة فعلًا..

و كان أحمد يتكلم في موضوع آخر.. وكانت أختي تعرف كيف تتعامل مع الرجال.. وكيف تناور وتتحدى وتتدلل، وكان زوجها صائدًا ضحية فريسته وعندما خرج يوم الاثنين ليأتي لها بسندوتشات لحمة من عند الحاتي.. لم يعد. مسكين كان قصير العمر.

ومات ونحن منشغلون بترتيبات الحياة.. مات بغتة كما عشنا بغتة، وكان الموت غريبًا وسريعًا سرعة لم أعتدها.

وانتهيت من دراستي وهو معي في كل لحظة. لم يتزوج ولم يعد.

ولم تأت لي الجرأة على أن أسمع صوته، كنت أخاف من أن أسمع في صوته لامبالاة أو شفقة أو ازدراء. والأمل بداخلي ينميه خيالي.

وأخذت دبلومة تدريس ووجدت نفسي أسترجع التاريخ كل يوم مرة ومرات! وأنا أدرس في مدرسة البنات الخاصة في الإسكندرية. ومع أنني بالنسبة لهم قادمة من الأقاليم، فقد كانت حكاياتي تأسرهم وكان خيالي منقذي وكنت أدرس التاريخ كما أراه.. وكنت أحكي لهم عن الفرسان وقصص الحب، وشعرت بأن قلبي كقلبهم وربما أصغر وكنت أشعر بملل غريب من التدريس وفخر غريب من كسب المال والدروس الخصوصية!

و جلست يومًا أكتب له رسالة مختلفة ممتلئة بالثقة. ولم أردد في الرسالة كلمات تعلمتها من عمتي ولا من مجتمعي ولا من أحد. ولم أرجُه وأرِق ماء وجهي كما أفعل دائمًا.

* * *

كتبت له من جديد...

«أشرف.... هل تعرف.... أنا كنت مخطئة في حق لبنى... أعتقد أنني لم أفهمها... أعتقد أنها كانت تحبك وتعذبت لفراقك، وأعتقد أنني قاسية في حكمي وأعتقد أن.... أنني سأعيش سواء بعثت لي بخطاب أو لم تبعث... سأعيش... لأنني أكسب الآن من عرق جبيني... هل تعرف هذا؟ نعم.... أعمل مدرسة تاريخ في مدرسة بالإسكندرية وأسافر كل يوم.... ستتساءل وما علاقة التاريخ بالآثار؟ كل العلاقة.... فتاريخنا لم يتغير منذ آلاف السنين.... تاريخنا آثار... أتفهمني؟ بل أصبحت الآن أساعد أبي في مصروف البيت، فبعد أن أصبح الاستيراد صعبًا الآن حالته التجارية يرثى لها... أنا أعطي أمي مصروفًا وأشعر بفخر شديد، وأنا أيضًا من يأتي لها بكسوة الشتاء هي وكريم هل تصدق؟ أحبها الآن.. أمي؟ أحببتها من جديد وأحبتني... هل تتذكر هذه المسافة التي كانت تفصلها عن أبي على الأريكة؟... كانا دائمًا يجلسان هكذا. الآن لا... فقد استطاعت أمي أن تجتاز تلك المسافة عن طريق أكل المحشي بالسمن البلدي وساعدها أبي على هذا فلم يعد هناك مسافة تذكر بينهما، اجتازتها أجسامهما الكبيرة.... آه وأغرقت أمي كل همها في المحشي وطبخ المحشي، أما سالي فأنت تعرف كل أخبارها... محزنة جدًّا! تزوجت من حب عمرها ومات قبل مضي عام وترك لها طفلًا... والآن تزوجت عرفيًّا من رجل ميسور ومتزوج تعيش في بيت صغير ولا تتكلم سوى عن حربها مع ضرتها،

والحظ الذي تركها، وتفوقها على كل الناس جمالًا... مسكينة نضجت قبل الأوان. الموت فظيع أخافه وأكرهه.... هل ستكتب لي؟ لو لم تفعل فلن أموت... ولكني سأحزن حزنًا كبيرًا... تكلم معي!».

ولم يكتب!

«لم تكتب لي... لا بأس، هل تصلك خطاباتي؟ هل تزوجت؟ هل أنت سعيد؟ لن أتزوج غيرك يا أشرف».

ولماذا أنقذني الله وأنا على حافة الجنون؟ لا أدري.

كان أشرف يقول: إذا لم تساعدي نفسك فلن يساعدك أحد.

وكنت أردد: إذا لم يساعدني الله فسأضيع هباءً كما تضيع الذبابة وسط البيت المرشوش بالبيروسول. ولم أكن سوى ذبابة جبانة تطير بجناح قصير. وتحلق فوق قدراتها وفوق عقلها وقلبها. وكنت ذبابة تافهة وعندما أموت لن يأبه بي أحد. ولم أكن أحب نفسي ولم أكن أعجب بذاتي ولم أكن أحب السياسة مثل لبنى ولم أكن أحب سواه!

و عندما يدخل الذباب الصغير من النافذة يتناثر في الهواء السام ويموت معظمه ولكن واحدة أو اثنتين تخرجان من النافذة.. تنفذان بجلدهما.. وأنا نفذت بجلدي.

وكان عزائي أنه لم يتزوج وأن لبنى لم تنتصر. هكذا الإنسان تافه ويتمسك بتفاصيل زائدة.

* * *

- 6 -

في لندن..

كان يومًا مشرقًا جميلًا، وحانت لحظة المواجهة بين خالتي وزوجها الدكتور محمود داود. وكان يومًا مشمسًا حقًّا من أجمل أيام خالتي في بريطانيا.

عندما ساد التوتر في البيت الإنجليزي العتيق وأصبح كل صوت ضئيل يثير أعصاب الحاضرين وعلى مائدة العشاء انفجرت ليلى في زوجها: كف عن الأكل... انظر لي... مرة واحدة انظر لي.

همس زوجها من بين أسنانه: لا أريد أن أراك يا ليلى.

أكمل أشرف طعامه وكأنه لا يسمع شيئًا فقد اعتاد انفجارات أمه وكره والده ولم يعد يعنيه الموقف برمته.

- من هي إذن هذه المرة؟ ممرضة في سن أولادك؟

قال في برود: هذه المرة سأتزوجها يا ليلى. لم يبق في عمري الكثير.

ترك أشرف الملعقة ونظر إلى والده في ثبات ....

رأى رموش والدتـه تتحرك في هستيرية قبل أن تصيح: حخرب بيتك يا محمود.

قام وقال في هدوء: بيتنا مخروب من زمان.

صاحت والدموع تختلط بالمكياج على وجهها، وشعرها الأبيض المتناثر على وجهها يتحرك يمينًا ويسارًا: من يوم أن رأيتك مع الإنجليزية الصايعة وسكت بمزاجي علشان أشرف حبيبي.

قال في تحدٍّ: نعم بالضبط منذ ذلك اليوم.

صاحت في يأس: يا رب.... يا رب يخدك ويريحني، يا رب أشوف فيك يوم يا...

قاطعها في ازدراء: كفاية بطلي حركات التخلف دي!

أمسكت بقميصه في قوة لم يرها أشرف من قبل وهو واقف لا يتحرك: أنا متخلفة يا واطي! يا بتاع النسوان.

لم يكن يحب هذه المشاهد، والمشهد اليوم بالذات كان شديد الاشمئزاز. وقف بين والديه وقال في صرامة: كفاية.... تعال ننزل يا بابا.

أمسك بوالده، جره إلى خارج البيت والمرارة تسيطر عليه... مشيا معًا خطوات ثم قال والده في هدوء: لم أعد أتحمل والدتك يا أشرف... لا تصدق كل ما تقول... هي تتوهم هذه الأشياء، أبوك رجل محترم.

هز رأسه بالإيجاب وهو ينظر للشارع المظلم والأسفلت الذي يسيطر على كل شيء والمطر الذي يتكوم في جوانب الطريق كاللقيط ولاحت بذاكرته لبنى وبيته في الزمالك وخالته وربما أنا أيضًا..

أغمض عينيه وهو يستمع إلى والده: لم أكن أمزح سأترك أمك. أنت رجل وتفهم قصدي، هذه أول مرة أتكلم معك رجلًا لرجل يا ابني. تحملت الكثير من أجلك، كل جنونها وغيرتها، هي كاذبة، لا تصدق كلمة مما تقول. أنت أملي يا أشرف. تعرف... كنت أفكر في شراء سيارة جديدة لك. تحتاج سيارة جديدة يا حبيبي. أشرف لماذا لا تجيب؟

كان أشرف منهمكًا في وضع حذائه على طرف بركات المياه الصغيرة التي تركها المطر في الشارع المسفلت، كان يشعر بإثارة غريبة وهو يرى طرف حذائه قد تغير لونه من البلل.... وكان يفعل هذا دائمًا وهو طفل.

- أشرف، أي نوع سيارة تريد؟ قل لي هل عندك صديقة الآن؟

هز رأسه بالنفي وهو منهمك في الحذاء المبلل.

- أما زلت تفكر في الصحفية المصرية؟

هز رأسه بالنفي من جديد.

- إنت أغلى حاجة عندي في الدنيا يا حبيبي ولكن أنت لا ترضى لأبيك بهذا الهوان، هل ترى كيف تعاملني أمك، وتحملت سنين من أجلك؟

لم ينطق... جاء صوت شاب ربما لم يتم السادسة عشرة بعد: ممكن تولع لي؟

نظر محمود إلى الشاب في ازدراء ثم صاح: اذهب بعيدًا..

لم يزل أشرف منهمكًا في النظر إلى حذائه ...

وقبل مرور ثوان كان الشاب النحيف الباهت ومعه خمسة آخرون يحيطون بأشرف ووالده..

وفي ثوان كان الشاب يشج رأس الدكتور محمود بعصا سميكة. وجد أشرف نفسه يمسك بأحد الباهتين يطرحه أرضًا، يقاومه، التقت عيناه بعين الباهت، توقع أن يرى الكره ولم ير شيئًا. لكمه في فمه.. سمع صرخات

والده.... نظر حوله هنا في الشارع المضيء.. كان والده ملقًى على الأرض بعد أن لفظ أنفاسه الأخيرة.

وكان كل شيء يحدث بسرعة : بابا.

هزه أشرف.. أمسك بيده الدافئة والذهول يسيطر عليه......

كان موقفًا غريبًا... الموت هذا.. سريع... سريع.. أسرع من الطائرة الكنكورد ومفاجئ ومضحك وأحمق و.. عبث!

لثوان شعر بأن كل ما حوله عبث ولعب. ولكنها الحقيقة التي سقطت على والدته كالصاعقة فصرخت وانهارت وارتدت الأسود وهمست لابنها: والدك كان ملاكًا... يا حبيبي يا محمود، لن أعيش من بعدك يا حبيبي ولن أخلع الأسود أبدًا. كان يحبني يا أشرف حبًّا جمًّا. وقبل أن يرحل قال لي: لا أعرف طعمًا لحياتي بدونك.

نظر لأمه في ذهول، أذهلته أمه ومفاجآتها كما أذهله الموت وقوته وجلس على سريره في شقته يفكر في أمر أمه وحبها المفاجئ لأبيه ورغبتها في أن تحيا على ذكراه.

في البداية ظن أن السبب الأساسي في هذا هو أغنية عبد الوهاب عاشق الروح....

ضحيت هنايا فداه... وحعيش على ذكراه.

وبما أن أمه كانت من عاشقي أفلام زمان فهذا ربما يفسر سلوكها غير المتوقع وحزنها الشديد...

وبعد عام من موت والده بدأت تتضح له الصورة أكثر.

أمه لم تزل ترتدي الأسود ولم تزل تبكي وتحكي عن عشق والده لها.

لساعات تحكي ولكل فريسة تقع بين يديها.

وهل هناك انتقام أقوى من هذا؟

تزوير التاريخ هو الانتقام الأمثل... ودكتور محمود داود ليس هنا للدفاع عن نفسه أو للإفصاح عن رغبته في الزواج بأخرى وتطليق ليلى للأبد، وبما أن الحظ قد أعطاها هدية لا تعوض واستجاب لرغبتها الأخيرة فهي سوف تعيش بقية عمرها تزور تاريخه وتصنعه وهو يتقلب في قبره ويصرخ: أكرهك يا ليلى وهي تقول من بين دموعها: كان يعشقني مات بين ذراعي.

وتبتسم وتبكي وتشكر القدر وتكذب على الزمن وما أجمل الكذب! عذب ومريح ومقرمش كالفستق تمامًا!

* * *

كتبت له من جديد أعزيه، وزرت أختي في بيتها الجديد ورأيت الأسى يظلل عينيها وهذا الجمود الغريب الذي يسيطر على عيون المعذبين في الأرض. كانت تتشفى في ضرتها وكأنها هي من خطفت زوجها الأول، وكانت تصرخ في طفلها وكأنه هو من يقف في طريق سعادتها الأبدية وأصبح البشر جميعًا يحاولون إتعاسها. كنت أستمع في صمت وشفقة وغضب.

وجاء الرد.... خطاب من بريطانيا!

«عزيزتي وفاء...... شكرًا على كل خطاباتك».

* * *

أجاب الله دعائي!

و جاء الرد.. جاء وأغرقني في فرحة كنت قد نسيتها فأكلت الأرز بالبطاطس الذي طبخته أمي في شراهة جديدة علي وكأن الحياة قد بدأت من جديد. أكلت واستطعمت الأكل وشعرت بالبرد وبالحر وبطعم البطاطس قويًّا ولذيذًا.. تنفست نفسًا عميقًا.. جاء الرد.. لماذا؟

لماذا أجاب أشرف الآن؟ لماذا الآن؟

ربما شفقة عليَّ..

و لكنه لم يشفق علي عندما رآني فُتاتًا أمامه.. لم يشفق علي..

ربما يحبني..

دخلت المرارة قلبي فجأة ثم خرجت مسرعة! يحبني؟ ربما لا.. بالطبع لا.. ولكنه أجاب عن خطابي..

لماذا؟ فضول؟ ربما.. ربما شعور مفاجئ بالواجب.. ربما ملَّ إلحاحي.. وربما شعر لحظتها لسبب ما بأنه يريد أن يبعث لي بخطاب.. ربما لا يبعث لي من جديد..

و ربما شعر بإخلاصي وحبي أخيرًا.. وربما لا يبعث من جديد!

كان خطابًا قصيرًا جدًّا مكتوبًا بخط سريع.

و ربما لا يبعث من جديد.

كان يسير إلى بيته مع صديقته وأخذها بين ذراعيه ثم تذكر الحضن «الأمريكاني» الذي كان يريد أن يعطيه لي ولكنني رفضت، ثم توسلت إليه أن يعطيه لي ولكنه رفض!

وربما لا يبعث لي من جديد.

عندما يصحو صباحًا بين ذراعي صديقته البريطانية سوف ينسى أنه كتب لي.

وربما لا يبعث من جديد.

الصبر جميل.. سيبعث من جديد.

وكتبت في فرح كنت قد نسيته:

«كيف تشكرني؟ أنا أحبك... » ثم شطبت أحبك! «أنا.... أنا أحب الكتابة إليك».

وبعد عدة أشهر جاءني خطاب آخر من بريطانيا:

«عزيزتي وفاء، لقد وصفتِ الموت في إحدى رسالاتك بأنه فظيع. هل تتذكرين؟ أنا أيضًا أخافه وأكرهه. أحزنني مصير سالي ولكنني سعيد من أجل خالتي ومن أجل التغير والقوة اللذين أستشعرهما في خطاباتك، وسعيد من أجل الكلمات التي قلتها في حق لبنى. كم عمرك الآن؟ أربعة وعشرون؟ ثلاثة وعشرون؟ نضجت كثيرًا في البضع السنوات الماضية».

قربت الخطاب إلى قلبي وأنا لا أستطيع السيطرة على فرحتي.

لم أكن أجرؤ على أن أتصل به تليفونيًّا. كنت أعرف أنني سأنهار ولن أستطيع أن أتكلم معه ولو كلمة. ولكن بعد أن أجاب عن خطابي.. شعرت برغبة جامحة في أن أسمع صوته. وكانت المشكلة الأولى هي أن أجد رقم تليفونه، والمشكلة الثانية هي ماذا سيفعل عندما يسمع صوتي؟! يمكنني أن أعزيه من جديد في موت والده!

قلت لأمي وأنا أزعم اللامبالاة: عندك نمرة خالتي يا ماما!

نظرت لي في دهشة ثم قالت في عدم اكتراث: في النوتة هناك! حتكلميها ليه؟

لم أجب.. بدأ قلبي يخفق بشدة.. وأنا أنتظر الغد للذهاب إلى السنترال..

نمت ليلتها وهو معي في خيالي.. في أحشائي.

قالت خالتي في دهشة: وفاء..

قلت مسرعة: كنت.. كنت أريد رقم بيت أشرف لأسأله عن بعض الكلمات الإنجليزية.

هل صدقتني خالتي؟.. ربما، وربما لا! ولكنها أعطتني الرقم.

نظرت إلى سنترال سيدي جابر القديم ولم أكن قد دخلت سنترالًا قط.. وشعرت أنني قريبة.. قريبة منه.. شعرت أنني خارج حدود كل البلاد وكل المطارات.

نظرت إلى الشاب الذي يعمل داخل السنترال.. لفتت نظري ملامحه الحادة وأنفه الذي يشبه منقار الصقر ونحافته الشديدة وكان مصريًّا.. مصريًّا إلى أقصى حد.. قال في عدم اكتراث: النمرة إيه؟

أعطيته الرقم .. لم ينظر إلي.. قال في نفس عدم الاكتراث: كابينة أربعة.

بدأت أنتظر والعرق يتصبب مني وأنا ألهث..

سمعت صوته! بعد كل هذه الأعوام سمعت صوته! لم يتغير صوته.

وكانت كلماتي متقطعة.. وكان عليَّ أن آخذ خطوة المبادرة: أشرف!

صمتَ لثوان وكأنه يتذكر الصوت.. ثم قال في هدوء.. وبلا أدنى دهشة!

- وفاء.. كيف حالك؟

كنت أرى ابتسامته.. كانت دافئة.. لسبب ما كانت دافئة!

وكان يسمعني وأنا ألهث.. تكلم هو: شكرًا على كل الرسالات يا وفاء.. أنا آسف، كنت أريد أن أكتب أكثر ولكنني مشغول جدًّا هذه الأيام.

قلت مسرعة والدموع تترقرق في عيني: لا يهم. اكتب عندما تريد.. أشرف، لقد افتقدناك.. كلنا.. كنت أريد أن أتكلم معك.. عن..

ابتسم وقال - ولأول مرة أشعر أنه يستمتع بالكلام معي لسبب ما لا أعرفه :-

- وفاء، أنا فخور بك يا ابنة خالتي.. كل هذا النجاح!

كاد يغشى علي، همست في صوت مبحوح: حقًّا فخور بي!

انقطع الخط..

صحت في الرجل: أرجوك اطلب الرقم مرة أخرى.

قال في لامبالاة: الخطوط مشغولة.

همست ودموعي تترقرق: أرجوك!

نظر إلي وقال - ولأول مرة يبدو عليه الاهتمام - : خطيبك؟

قلت في فخر: نعم.

حاول وحاول ولم يستطع.

همست في ترجٍّ: لو سمحت.

ابتسم فجأة وقال: أنا سامي، تعالي بكرة وحاولي من جديد.

وفي اليوم التالي ذهبت من جديد وطلب لي سامي رقم أشرف.

وشعرت بابتسامته وهو يسمع صوتي.. وقلت في خجل: أنا آسفة أمس الخط.. أشرف هل أعطلك بمكالماتي؟ هل يمكنني أن أطلبك بين الحين والآخر!

قال في تأكيد: بالطبع يا وفاء.. ولكن المكالمات غالية عليك، هل هناك شيء أستطيع أن أساعدك فيه؟

كانت لهجته حادة بعض الشيء، فقلت في ترجٍّ: هل تحبني الآن.. بعض الشيء؟ قلت إنك معجب بي.. هل تتذكر؟

هل كان يكتم ضحكاته؟ هل فعل؟ كنت أشعر بتوتر في صوته.. وكنت أعرف التوتر في صوته.. كان حادًّا وكلماته تخرج متقطعة.. ولسبب ما كسرت كلماتي حدة التوتر فقال وكأنه يجد الموقف مسليًا:

- أضحكتني يا وفاء.. كان عندي بعض المشاكل في العمل ولكنك أضحكتينى كما تفعلين أحيانًا!

همست في شوق: أشرف!

- ما زلت تتصرفين كالمراهقات، أليس كذلك! عقلك نضج وقلبك لم ينضج!

- لم تجب عن سؤالي!

- عندما أتكلم معك أشعر وكأن الزمن لم يمر..

همست في فرح: لم يمر.. لم تجب عن سؤالي..

- لا أتذكر السؤال!

فتحت فمي لأنطق وفجأة شعرت بأنه يلهو.. ويلعب كما يفعل دائمًا! يعشق اللعب، ولكنه كان يلهو بي كما يلهو الشبل الصغير بفأر قبل أن يأكله أو ربما يلقي به في مكان ما بعد أن يسأم اللهو، ولكنني كنت فرحة وقلت في حماس: عندك مشاكل في العمل؟

عبس وجهه وقال وكأنني أخذت منه اللعبة: نعم.. مشاكل.. الدنيا كلها مشاكل الآن! مع السلامة يا وفاء.. عليَّ أن أعود إلى العمل!

لم أنم ليلتي وكنت أمسك بكل المال الذي كسبته في الأشهر الماضية وبدلًا من أن أشتري به أشياء للبيت قررت أن أصرف كل ما أملك في المكالمات التليفونية إلى لندن.

غدًا سأتصل به من جديد.. قال إن الدنيا كلها مشاكل.. ماذا بأشرف؟ هل هي لبنى من جديد.. هل عادت إلى حياته مرة أخرى؟ أم امرأة جديدة تعذبه؟ ربما أمه وموت والده وربما مشاكل في العمل.. كم كنت أتمنى أن ألقي بنفسي بين ذراعيه.. أن أشعر به يختلج بين أضلعي. كنت أشتاق إليه وأريده كما لم ترد امرأة رجلًا قط!

ويعلم الله كم كنت أريده وكم قاومت وكم تخيلت نفسي أعطي نفسي له بلا مقابل ولا أندم!

ولكنني لم أفعل.

بعد الانتهاء من المدرسة والدروس الخصوصية.. ذهبت إلى السنترال كان الرجل يعرفني ويعرف الرقم الذي أريده. قال في عدم اكتراث: تريدين التكلم مع خطيبك؟ أحسده خطيبك هذا..

ظهر علي الارتباك وخجلت من نفسي ومن كذبتي وطلبت الرقم من جديد وسمعت صوته وكان متوترًا وقال: إزيك يا وفاء؟

قلت مسرعة: كنت قلقة عليك.. هل أنت بخير يا أشرف؟

قال في اقتضاب: شكرًا يا وفاء، مع السلامة.

وأغلق الخط.. وتركني مفتوحة الفم مذهولة مفزوعة.

كيف يكون بهذه القسوة؟! لماذا؟!

نظر لي الشاب وابتسم قائلًا: إيه كبك ولا إيه!

لم أجب. سرت خطوات وأنا لا أدري ماذا أفعل.. كان رقيقًا معي من قبل كان يعطيني أملًا في المستقبل، لماذا يلهو بي أنا.. لماذا أنا؟

سوف أتصل به من جديد وأنهره وأقول كل الكلمات التي يستحقها.. إنه مغرور وخائن ونذل و.. و..

ولم أفعل.

سوف أتصل به من جديد.. لن أعودَ إلى البيت هكذا، لا أستطيع .

عدت إلى السنترال. نظر لي الشاب وابتسم قائلًا: نفس النمرة؟!

هززت رأسي بالإيجاب.

سمعت صوت الجرس أولًا ثم صوته هو.. وقلبي يخفق.. قلت في تلقائية: أشرف، أرجوك لا تغلق السماعة..

شعرت به يبتسم ولم ينطق.

فقلت مسرعة: تعرف.. أنت ابن خالتي ومن دمي ولحمي.

شعرت بصوته أكثر هدوءًا وهمس في رقة: نعم أعرف أنني ابن خالتك.

قلت مسرعة: ونحن كالإخوة.. هل تتذكر؟ قلت من قبل إننا كالإخوة..

تنهد وقال: وعلى ما أتذكر لم تعجبك كلماتي.

قلت في ترجٍّ: بل تعجبني.. كانت لا تعجبني والآن تعجبني. الآن أنا تغيرت، الآن أنا أكثر ثقة في نفسي ولا أحتاج إلى أحد.. تفهم قصدي؟

قال وهو يجد كلماتي مسلية: لا، لا أفهم قصدك.

- أريد أن أكون صديقتك وأختك.. فقط أختك.

قال في تلقائية: أنت أختي يا وفاء.

أجبت في غضب: لا تقل هذا أبدًا!!

سمعت ضحكاته ولم يجب.

قلت في ترجٍّ: أرتاح.. عندما أتكلم معك أرتاح. هل يمكنني أن أتكلم معك بين الحين والآخر؟

- نعم بالطبع يمكنك هذا ولكنني لا أدري عندما تتزوجين هل تظنين أن زوجك سيوافق على هذه الصداقة؟

قلت في قوة: لن أتزوج أبدًا..

ثم أكملت رغمًا عني: لن أتزوج غيرك!

قال في جدية: آه.. عدنا إلى الكلام التافه هذا.. وفاء....

قاطعته وأنا أكره كلماته: كنت أمزح فقط.. بالطبع سأتزوج ولكن ليس الآن و..

صمت وصمت ثم قلت فجأة: ماذا بك؟

قال في دهشة: كيف عرفت أنني لست بخير؟

- من صوتك.. ألم تقل إنك لحمي ودمي.

قال في لامبالاة: مشاكل يا وفاء.

- الخط حيقطع بعد دقيقة!

هكذا قال الشاب في السنترال، هل كان يستمع إلى المكالمة إذن؟لا يهم.. أشرت له من الكابينة وصحت: أرجوك لا تقطع الخط.. مكالمة تانية وتالتة

- أشرف..

لم يجب.

هل قطع الشاب الخط؟ هل سئم أشرف كلماتي.. هل هو القدر؟

لا أدري .. ولم أتكلم معه بعد ذلك.. لمدة طويلة.

احمرَّ وجهي وكانت دموعي قريبة من عيني فقال الرجل في لهجة هادئة رتيبة: خطيبك هذا؟

قلت في تلقائية: نعم.

قال في نفس لهجته: بيحبك قوي!

أكان يسخر مني.. أكان يسخر مني؟ أم أن هذا ما شعر به.

بيحبك قوي.. هكذا قال الشاب في السنترال.

وكلماته حتى وإن كانت ساخرة فقد أراحتني.

لم يجب أشرف على التليفون في اليوم التالي والأسبوع التالي والشهر التالي!!

عدت في الصباح إلى السنترال وكنت قد بدأت أشعر بتوتر شديد من جديد، وكنت أدعو الله كل يوم، وكان اليأس يتسرب إلى نفسي، وقال الشاب وهو يبتسم: النمرة مبتردش.

اتجهت إلى الباب فقال فجأة: يا آنسة

نظرت إليه في يأس فقال في رقة: هل تريدينني أن أحاول من جديد؟

ابتسمت وعيناي تلمعان: نعم من فضلك.

التقت أعيننا فقال مسرعًا: سوف أحاول ولكن بشرط.

نظرت له في شك!

- يا آنسة.. ما اسمك؟

قلت وصبري بدأ ينفد: وفاء.

- سأحاول يا آنسة وفاء لأنك طيبة قوي.. ولكن بشرط.

قلت في حدة: وما هو؟

- أن تطلبي من خطيبك أن يجد لي عقد عمل في لندن..

ابتسمت في براءة.. كنت أتوقع شيئًا آخر.. ولكنني كنت أرتاح لسامي ولثوانٍ شعرت بأنه مثلي.. يبحث عن المستحيل وكنت أحتاج إلى صديق وكنت أخشى كل الرجال ولم أكن أرى سوى أشرف.

قلت في حماس: أعدك بهذا.

قال وهو يبتسم: هل ستأتين غدًا مرة أخرى.

قلت في حماس: سأحاول غدًا.

* * *

وفي اليوم التالي شعرت كم أنا وحيدة وشعرت بهذه الفجوة داخلي التي تنمو كل يوم .

ما إن رآني حتى ابتسم من جديد وقال: كابينة خمسة.. سأطلب لك النمرة.

كنت أنتظر في ترقب وقلق..

وجاء صوته.

ولم يكن صوت أشرف.

كان صوت سامي: النمرة مبتردش.

همست في ترجٍّ: حاول من جديد.

- مش بترد يا وفاء.

خرجت من الكابينة والتوتر يبدو عليَّ فقال هو في رفق: ربما سافر.. حاولي غدًا.

وحاولت غدًا وغدًا.. حتى ترقرقت الدموع في عينيَّ والسنترال يعج بالناس وعيناه لا تتركان عينيَّ.

قال وهو ينظر لي: وفاء هل هو خطيبك حقًّا؟

قلت في غضب والدموع تنهمر: ماذا تقصد؟

قال في خجل: أنت زي أختي يا وفاء..

نظرت له في دهشة وكأن كلمة إنت زي أختي هذه مكتوبة على جبيني.. ولكن سامي كان مختلفًا وكنت أرى شيئًا آخر في عينيه.. انبهار؟ ربما.

قال مسرعًا: اهدئي يا وفاء.

قلت في تحدٍّ: لا تقل يا وفاء.. إذا سمحت أنا لا أعرفك.

قال في ارتباك: أنا آسف.

ثم اتجهت إلى الباب وهو ورائي.. خرج ورائي قائلًا: أين ستذهبين؟

- إلى بيتي.

- أين بيتك؟

نظرت له في دهشة وأنا أمسح دموعي: وما شأنك أنت؟ إذا سمحت..

ثم صمت وهمست: سامي شكرًا على أنك حاولت أن تطلب لي النمرة.. هل ستحاول غدًا؟

قال في رفق: سأحاول كل يوم من أجلك، ألم أقل لك أنت زي أختي؟

قلت في يأس: قلت من قبل إنه يحبني.. كيف عرفت؟

فتح فمه لينطق، فهمست: لا لا تقل شيئًا، لا أريد أن أسمع شيئًا.. سأذهب إلى سنترال مختلف من الغد.

قال في نفس الرفق: لماذا، هل ضايقتك إلى هذا الحد؟ أنا آسف هل تخشينني أم تخشين مشاعرك؟

فتحت عيني في ذهول.. وكانت رموشه تتحرك وكأنه على وشك الاعتراف بحبه! وكان يبدو عليه دلال الرجل الذي يتزعم الريادة: طبعًا أنا لست مثل أشرف هذا. أنا لا أعيش في لندن وأقبض بالإسترليني ولكن والدي جزار و..

بلعت ريقي ولم أنطق.

فأكمل في شجاعة: هو ليس خطيبك؟

نظرت حولي وكنت في رصيف تلاتة أنتظر قطار دمنهور وكان سامي يتكلم دون انقطاع ولم أكن أسمع شيئًا ولم أكن أخشاه ولم أكن أرى سوى حلم واحد ورجل واحد وكانت قشعريرة تسري في جسدي لو تصورت نفسي لرجل آخر. ولكنني لم أكن أخشى سامي.. كان مسالمًا وبسيطًا وكان يريد الذهاب إلى بريطانيا أو السعودية أو الزواج والاستقرار في مصر.. وكان مختلفًا عني. كان أكثر مرونة! وأكثر أملًا وحسدته وكان قد رأى ضعفي.

نظرت له فجأة وأنا لا أسمع كلمة مما يقول فقال مسرعًا: ربنا معاك يا وفاء.

وتركني في رفق.. كل شيء يفعله في رفق. كان مثاليًّا وأعجبت به وشعرت بأنه سيكون زوجًا يحاول إسعاد زوجته في رفق! ولكن من يستمع إلى صوت العقل! أنا أبدًا لم أستمع إلى صوت العقل. ولم أستمع إلى أي صوت ما عدا صوت خيالي. وكان هو قد فهم أن الأمل مستحيل وكان سريع

الفهم، ولكنه كان بسيطًا ولم يكن يعشق اللعب! وكنت كالفأر الذي ينتظر الشبل الصغير ليعطي نفسه له قربانًا!

وعرفت كيف تقدم القرابين.

عدت إلى بيتي وكنت قد قررت أن أتوقف عن الكلام في التليفون مع أشرف وأن أبعث له بخطاب جديد وأحكي له عن سامي.. ربما يغار عليَّ.. ولكنه لن يفعل.

أكثرت من الصلاة وكنت أكلم الله في كل مكان وزمان ولم أكن آبه بالوقت ولا بالشكل. كانت علاقتي به قوية وكان يريحني الكلام إليه. وتوقفت عن الذهاب إلى السنترال.

وذكرت نفسي أنني سأعيش سواء عاد أشرف أو لم يعد. ربما لا أتزوج غيره ولكنني سأعيش.

* * *

كان الحلم يبدو بعيدًا أحيانًا وقريبًا أحيانًا وكتبت له من جديد «أشرف ماذا بك؟ هل هي امرأة دخلت حياتك فأربكتك؟ هل موت والدك أثر فيك كل هذا التأثير؟ هل تفتقد مصر؟ هل تشعر بالخوف؟ تكلم معي. كم أتمنى أن تصارحنى بكل شيء وكم أتمنى لو استطعت أن أساعدك».

ولم أكن أدري أكان كل من حولي يعرف أنني أتصل به أحيانًا وأراسله أم لا؟ لم أكن أعرف أكان كل من حولي يظنني مجنونة أم لا؟ ولم أكن على صلة مباشرة مع من حولي. كنت أسأل عن سالي بين الحين والآخر وكنت قد عشقت طفلها وعشقت أن أسكب خيالي أمامه وأقص عليه القصص. ولم تكن تربطني علاقة قوية بكريم ولم يكن كريم مرتبطًا بأحد على الإطلاق. أما أمي وأبي فلم أشعر يومًا بقربهما ولم تتغير مشاعري ولكنني كنت أشعر بالدفء وأنا أرى التجاعيد تتسرب إلى وجهيهما وكنت ألين أكثر وأنا أرى أمي تتغير مع الزمن والعمر يجري بها.

وكنت أعود من عملي متعبة وأغلق باب حجرتي وأبدأ في القراءة أو كتابة الرسائل لأشرف. وكان حبي له كالوظيفة التي تستغرق كل لحظة من حياة الفرد.

وبعد مرور حوالي شهرين جاءني خطاب من أشرف. وكنت أرى اليوم يقترب عندما يعود إليَّ.

اليوم يبدو الجواب كبيرًا وسميكًا... ضممته في لهفة وأنا أمشي على شاطئ البحر في خطوات سريعة. جلست على المقعد الخشبي أمام الأمواج العالية وأخذت نفسًا طويلًا. أخرجت سندوتش الجبن وبدأت آكل وأنا أفتح الجواب... ثم طرحت السندوتش جانبًا وأمسكت الورقة بيدي الاثنتين وكأنها طفلي الصغير أحميه وأفتخر به.. بدأت رسالته:

«وفاء ..

مصيبة حلت عليَّ.... ضعت يا وفاء.. كل شيء... عمل سنين راح في لحظات... الله يخرب بيت حزب المحافظين وبيت سنينه!

كل ما أملك..

لا يهم... عليَّ أن أنقذ رقبتي وإلا قضيت بقية شبابي في السجن...
لا أستطيع أن أشرح لك ولا أريد أن أشرح لك وليس عندي الوقت لأشرح لك. أشعر برغبة عارمة في القيء... اعذريني سأتوقف عن الكتابة الآن.

(أكمل بقلم رصاص، وليس بالقلم الحبر الباركر الذي يكتب به دائمًا).

اشتريت ثلاثة بيوت بالتقسيط بضمان عملي ودخلت وأدخلت عملائي في البنك في مناقصات خسرت كلها... أسعار البيوت انخفضت وسعر الفائدة أصبح مجنونًا ومحالًا... سبع سنوات سجن يا وفاء. أنا سأقضي سبع سنوات في السجن.

جازفت... نعم ولكن الكل يجازف والكل يكسب والكل غني وأنا...

لا أدري ماذا سأفعل.

عليَّ أن أتصرف سريعًا وأكره كتابة الرسائل... ربما لا أكتب لك بعد اليوم.

أظن أن عليَّ أن أرحل... والدتي تبكي باستمرار ولا تصدق ما جرى.

أظن أن عليَّ أن أرحل.. لم يعد بيتي في بريطانيا. سأرحل ربما إلى إسبانيا أو ربما إلى...

أمريكا..

الكل يرحل إلى أمريكا. أمريكا هي بلد الغريق واليائس، سأرحل إلى أمريكا... وأبدأ من جديد لا بأس سأبدأ من جديد.

المشكلة ليست مشكلة عقلي... المشكلة مشكلة اقتصاد متذبذب في بلد يترنح ما بين العراقة والطمع والـ... لا أدري.

أكره الفقر وأخشاه.

أخشاه أكثر من خشيتي لأي شيء.... أتمنى الموت الآن نعم... أتمنى لو أصبت بشلل نصفي ولم أفقد كل ما أملك في صفقات خاسرة:

إنها مشكلة قومية. أقصد في كل بريطانيا.

فلأصب بالشلل وآمر الخدم أن يخدموني أفضل من أن أخدم أنا كل من حولي مقابل جنيهات قليلة!

كم أكره الفقر يا وفاء.

لم أخبر أحدًا من قبل ولكني أحتقر الفقر والفقراء وها أنا واحد منهم الآن.

لا بأس...

أخرجت جواز سفري المصري والبريطاني حملقت فيهما لثوانٍ.

عليَّ أن أتخلص من البريطاني الآن . كنت أخاف السجن! مذقت جواز السفر وكأنني أمزق هويتي البريطانية إلى الأبد.

كل عصر وله جواز سفره.

سأرحل بالمصري.. حصلت على الفيزا وسأرحل بالمصري إلى بلاد الأحلام والأوهام... ادعي لي يا وفاء أعرف أنك متدينة... أمازلت متدينة؟

عندي حساب بسيط في أمريكا بعثت ببعض أموالي هناك.. وأموال.. غيري ماذا تتوقعين؟ أن أجوع؟ سآخذ المال وأبدأ من جديد.. لماذا أقول لك كل هذا وأنت في الحقيقة لا تعنين شيئًا بالنسبة لي. ربما هذا هو السبب. السبب أنك شخص لا يعني لي شيئًا وحتى لو عريت نفسي أمامك فهذا أيضًا لا يعني لي شيئًا»!.

* * *

أعدت قراءة الجواب مرات ومرات... لم أكمل سندوتش الجبن... ربما لا يكتب لي من جديد... ربما لا أراه مرة أخرى أبدًا... ربما ينتحر.. ربما.

مجنونة! بالطبع لن أراه مرة أخرى... لماذا أتمسك بحلم مستحيل... مثلي كبقية المصريين بل كبقية البشر. من منا لا يتمسك بحلم مستحيل؟

ذهبت إلى البيت وبدأت أسأل أمي عن خالتي وأخبار خالتي وابن خالتي. قالت إن خالتي سوف تأتي بعد أسبوعين لتزورنا ولكنها لم تقل أي شيء عن ابن خالتي. ومر حوالي أسبوع وعرفت أمي أن هناك مشكلة ما يمر بها أشرف مشكلة مادية وأنه سافر ولم تعرف أكثر من ذلك.

لم أكتب له لمدة أسابيع. كنت خائفة لو كتبت له بكم أحبه سيخاف مني وينقطع عن الكتابة. كنت خائفة وحائرة. عندما سافرنا لاستقبال خالتي في المطار بتنا ليلتنا كالعادة عند عمتي. وقلبي يعتصر في بطء من الخوف عليه والشوق له واليأس الذي سيطر عليَّ من جديد.

جلست عمتي القرفصاء على الأريكة المنجدة المغطاة بالقماش الوردي والتي تعشق عمتي الجلوس عليها وإصدار الأوامر واتخاذ القرارات وتنفيذ الأحكام. كنت متوترة توترًا هائلًا وكانت أمي جالسة في تحفز لما ستقوله عمتي وكان كريم يستعد للفتوى في كل المواضيع وعلى أي شيء وكان أخي يشعر الآن بعد أن أصبح في كلية التجارة بأنه الرجل العالم بالأمور وخفاياها.

أما سالي فبدأت تنهر طفلها كما تفعل دائمًا في لحظات الضعف والقسوة كأنه هو من يمنع عنها السعادة الأبدية!

مصمصت عمتي شفتيها وقالت لأمي: سمعت أن أشرف ابن أختك هرب من بريطانيا. اختلس مبالغ من البنك اللي بيعمل فيه وحاجات زي كده!

نظرت لها أمي في ازدراء وقالت في قوة: كل دي إشاعات وحقد.

قالت عمتي في هدوء: يا منال ابن أختك كان لازم ربنا يخسف بيه الأرض. الشرب والنسوان والمصايب اللي كان بيعملها.

فتحت أمي فمها ولكن كريم قال في جدية وكأنه العالم بخفايا الحقائق: كنت أعرف أن هذا سيحدث. يا ماما أنت مش عارفة، فيه مشاكل اقتصادية في بريطانيا والكل يقاسي منها بسبب قرارات خاطئة من حزب المحافظين!

قالت عمتي في تهكمها الجاف: مشاكل في بريطانيا! أمال إحنا عندنا إيه! مشاكلهم أن الفساد اتزرع فيهم! قال مشاكل قال!

قال كريم مؤكدًا وأمي تنظر له في إعجاب: أنا نصحت أشرف أن يبقى هنا ويفتح مشروع معي لكن يبدو إنه كان يظننا نطمع فيه! وها هي نهاية من لا يثق في أهله.

قالت أمي في جفاء: ده كله من العين اللي صابته يا علية من الأر يا حبيبتي!

قالت عمتي في غيظ: ليه هو أنا ححسده على إيه! عندي الولد يا حبيبتي ربنا يخليه ليه ولا حرامي ولا فاسد ولا حاجة.

بلعت ريقي في ألم ولم أنطق. صاحت أمي وبدأت في الاستعداد لترك بيت عمتي وسالي تهدئها وانتهى الموقف بأمي في بيت عمتي في حجرة صغيرة.

وعمتي تشكو لسالي من حساسية أمي المفرطة ومن الإجهاد الذي حل بها بعد أن طبخت لأمي السمك البلطي خصيصًا من أجلها. بدأت أشعر برغبة جامحة في البحث عن صديقي القديم! السكين. ولكنني لم أفعل. أغمضت عيني وعضضت على شفتي وبدأت أكتب من جديد:

«أشرف. أرجوك احكي لي عن أخبارك. لو لم تفعل لن أموت ولكنني سأحزن حزنًا شديدًا. إنك طيب يا أشرف أنا أعرف، وتستحق كل خير».

كنت أريد أن أبعث بالجواب في اللحظة والتو!

وفجأة تذكرت أنني لا أملك حتى عنوانه! ولا أدري إلى أين أرسل الخطاب. شعور غريب بالضياع اجتاحني ولكنني لم ألجأ إلى السكين.

وجدت نفسي أهمهم: ربنا رحيم!

وكان مجيء خالتي من بريطانيا يهدئني، وكنت أعرف أنها ستخبرنا بكل أخباره!

وكنت في مطار القاهرة الدولي أنتظر خالتي في لهفة بعد مرور خمس سنوات من رحيل أشرف. خمس سنوات فقد فيها أشرف والده وكل ما يملك. فقدهم في لحظات فقط! خمس سنوات وأنا لا أفكر في سواه. خمس سنوات وحياتنا انقلبت رأسًا على عقب. كلنا!

لو عاد! لو عاد الآن مع خالتي وتزوجني! آه لو عاد.

* * *

كان الأسى يبدو على وجه خالتي واللون الأسود لم يفارقها رغم مرور عامين على وفاة زوجها.

همست وأنا أجلس بجانبها في السيارة: كيف حاله يا خالتي؟

همست في برود: هو عند الله سيراعيه.

كاد قلبي يتوقف وقلت في صوت مبحوح: من؟

- محمود زوجي. الله يرحمه.

تنهدت في ارتياح وقلت مسرعة: أشرف كيف حاله؟

قالت في شيء من اللامبالاة: في أمريكا.

- معك عنوانه؟

- لا. لم يبعث لي به ولكنه اتصل بي. هو بخير. آه يا وفاء الكثير من أصدقائي ينصحونني بخلع اللون الأسود ولكنني لا أستطيع . عشرة عمر يا

وفاء.

لم أكن أفهم خالتي. هل فقدت عقلها؟ ولماذا تحاول خداعنا نحن. كلنا نعرف محمود ونعرف علاقتها به! ولكن ما كان يحيرني أكثر هو تحاشيها لموضوع أشرف. هل كان يسيطر عليها الشعور بالعار لانهيار ابنها؟ هل كان الموضوع أكبر من تحملها؟ ربما الاثنان معًا. فقد كانت دومًا تبتسم في فخر وتلمع عيناها عندما يذكر اسمه ولم تزل تلمع عيناها إذا ما ذكر اسمه ولكنها لا تبتسم بل تطأطئ رأسها ولا تنطق.

هناك الكثير الذي عجزت عن فهمه في تصرفات من حولي وكان يخيل إليَّ أن خالتي الآن لا تعيش بأشرف بل بذكرى زوجها الذي صنعته وخيل إليَّ أن الخيال بدأ يسيطر على حياتنا وأن الحلم أصبح مستساغًا عن الحقيقة وأن خالتي المصرية التي بكت عندما مات عبد الحليم لم تعد مصرية ولم يكن لديها أدنى رغبة في البقاء في مصر إلا للسياحة! وعادت إلى بريطانيا بعد أسبوعين من أجل الأصدقاء والتأمين الصحي والجو البارد و... و...

وكنت أنا أذهب إلى عملي صباحًا وأبدأ في الدروس الخصوصية مساءً. وكنت أدرس تاريخًا .. تاريخ الوطن العربي ومصر الحديثة للثانوية العامة. وكنت أعطي الكثير من الدروس الخصوصية وأعيد على مسمع الطلبة الثلاثة قضاء والثلاثة إقامة لثورة يوليو كل يوم خمسًا وعشرين مرة!

القضاء على الاستعمار!

القضاء على الفساد وسيطرة رأس المال.

القضاء على الملك وأعوانه.

وإقامة حياة ديمقراطية سليمة.

إقامة عدالة اجتماعية.

وإقامة جيش وطني قوي.

وكنت أحتاج إلى العمل لأنسى.

ولم أزل أحبه. وأحلم. وبعد ثلاثة أشهر كتب من جديد.

* * *

نعم كتب من جديد:

«عندما وصلت أمريكا كنت أنتظر الصباح لأذهب إلى البنك وأسحب رصيدي.. شيء مضحك جدًّا. هل تعرفين؟.. نسيت الرقم السري للحساب. حقًّا.. لا أمزح لا أستطيع أن أسحب أي شيء لأنني نسيتُ الرقم السري

للحساب.وجاء الصباح وذهبت إلى البنك بجواز سفري المصري... تعرفين القصة... كان عليَّ أن أتخلص من جواز السفر البريطاني كما أخبرتك وإلا لم أكن سأستطيع السفر. وعندما ذهبت إلى البنك أعطيت جواز السفر في حماس إلى السيدة الجالسة خلف الزجاج! قالت وهي تهز رأسها بالنفي:

- ولكن صاحب الحساب بريطاني!

- نعم عندي جواز سفر مصري وآخر بريطاني.

- نحتاج البريطاني.

- ليس عندي.

- لا نستطيع إعطاءك هذا المال سوى بجواز السفر الذي وضعت الحساب به!

- لم يكن من طبعي أن أفقد أعصابي ولكنني فقدتها! كنت أرتجف من رأسي حتى قدمي وصحت في الموظفة والمدير وأمسكت بكتفها وأنا أصرخ: أريد مالي.

- وكانت تقول في صمود: ليس لك مال هنا!

- مالي!

- ليس لك مال هنا! جواز سفر مصري ولا تتذكر الرقم السري للحساب. صاحب الحساب بريطاني!

- وقضيت ليلة في قسم البوليس وأنا أريد تمزيق العالم!

- وأعدت الكـرَّة يومًا واثنين ورجـوت الله أن أتذكـر الرقـم 3519... لا أدري ربما 3591 أو ربما 3951 ولم أتذكره!

- وانتهت القصة! قصة أشرف البريطاني السعيد!

أعتقد أن على كل إنسان أن يستحم. أو هذا ما كنت أعتقد قبل أن أسكن في بيت الفقراء في فرجينيا.. هكذا أطلقت عليه... بل هو بيت المعذبين.. ففقراء مصر يملكون الكثير من خفة الظل والكرامة، أما فقراء أمريكا فغارقين في الذل... وفاء.

لم أعد أستطيع أن أتبول.

تعرفين هذا الشعور بأن البول يحتبس في بطنك كما تحتبس الكلمات في حلقك، كما تحتبس الأنفاس في صدرك... أشعر برغبة غريبة في الموت... كنت أظن نفسي قويًّا، قويًّا وذكيًّا.

وفاء

أشعر بضعف غريب وأنا أنظر لجيراني في نفس البيت. بل في نفس المرحاض... فما نسكن فيه ليس بيتًا بل مرحاضًا كبيرًا... تفوح رائحة القاذورات من كل مكان خاصة المطبخ والحمام.

الحمام دائمًا ممتلئ بالمناديل الورقية المبللة بالبول وأحيانًا ببقايا القيء والبراز والمطبخ ممتلئ بالخمر والبطاطس المقلية القديمة والمكرونة بصلصة الطماطم المتعفنة.

لم أعد أستطيع دخول الحمام ولا المطبخ... فقط لا أستطيع ولا أملك أي مال الآن... أمي ستبعث لي ببعض المال. هكذا قالت ولكن ليس الآن.

هذا ما يجعلني أستمر في الحياة... الأمل... الفقر ليس من نصيبي.

جاك جاري في البيت في بداية الستين.... كم أشفق عليه يا وفاء أعتقد أنه بلا عمل الآن... لا يستحم يا وفاء، يبقى جالسًا يستمع إلى الراديو ساعات كل يوم وهو يرتدي بنطلونه المخطط الرمادي وقميصه الرث ومعطفه الثقيل الذي تفوح منه رائحات متعددة لن أصفها لك الآن.

أما بيدرو فمكسيكي هارب مثلي ربما لا أدري، جاء إلى أمريكا ليعمل أعتقد أنه يعمل. يأتي كل يوم مخمورًا رائحته تفوح بالخمر.. وكثيرًا ما يتقيَّأ قبل أن تأتي صديقته لتقضي الليل معه يصرخان يتشاجران لا أدري هل يضرب كل منهما الآخر أم لا ثم يصمتان... إلى حد ما.

بدأت أكره الخمر يا وفاء كنت استمتع في الماضي بكأس الشمبانيا أو النبيذ الأبيض مع حبات الفستق، أما الآن فلا أستطيع أن أستنشق رائحة البيرة ولا القيء ولا بيدرو ولا جاك.

ماذا أفعل الآن؟

أعمل في محل للدجاج المقلي، أكره رائحة الدجاج المقلي أيضًا.... عندما تبعث لي أمي ببعض المال سآكل أي شيء سوى الدجاج المقلي...

أغلقت عقلي يا وفاء لم يعد يعمل... ولم أعد آكل، لا أستطيع.

نظرت إلى نفسي في المرآة اليوم.... رجل لا أعرفه.

الشعر الأبيض بدأ يحتل رأسي والعظام تسيطر على وجهي».

لم أكن أصدق الجواب وبدا لي أن كل الأحداث في حياة أشرف هي مسرحية سخيفة يمثلها عليَّ أو لعبة، ربما فهو يعشق الألعاب. ولم أستوعب ما قاله ولم أصدقه وأخذت أتفحص الجواب حتى وجدت عنوانه. كان في

أمريكا في ولاية فرجينيا على ما أعتقد . إذن هو لا يكذب. وكان من الصعب عليَّ تخيل أشرف في هذه الأماكن وكان من الصعب عليَّ أن أصدر حكمي عليه كما فعلت عمتي وحتى أمي. وكان من الصعب عليَّ فهم موقف خالتي. لماذا لم تساعده؟ ربما حاولت.. لا أدري وربما تخاف من الزمن وتريد أن تدخر للزمن الغادر. بعد التفكير العميق خيل إليَّ أن خالتي ربما لا تملك الكثير من المال. ربما دخلت مع ابنها في نفس صفقاته! نعم تجلت لي الحقيقة فجأة التي لم يستوعبها عقلي. أشرف كان يعمل في البنك وضارب في بورصة لندن بماله ومال والده الذي ورثه ومال أمه ومال عملائه! كان يعشق اللعب والمغامرة! وفي وسط أزمة البيوت في بريطانيا انهار هو وصفقاته وعملاؤه! وبالطبع لم يتخذ الحذر اللازم وهو يعقد صفقاته مما كلف البنك الكثير وبالطبع انتهى الأمر بالخبير الاقتصادي الشاب المليونير! الذكي الوسيم بحكم سجن سبع سنوات!

تجلت لي الحقيقة في بطء من الكلمات المتناثرة في خطاباته ومن الأخبار ومن أمه ومن خيالي! لماذا لم تساعده أمه؟ لأنها لا تستطيع! لأنها لا تملك المال لتساعده ولأنها لا تستطيع الاتصال به من الخوف عليه! فربما يجده البوليس البريطاني.

كانت الأحداث تبدو غير حقيقية! وكانت تلك الأحداث دائمًا تحدث لغيرنا! وكانت المصائب أشياء تحدث لأشخاص آخرين وأصبحت تحدث لحبيبي وكأنها ملتصقة باسمه منذ زمن.

لم أفكر ولو للحظات أن أشرف قد أخطأ.. أن أشرف حتى ولو لم يكن يقصد إيذاء غيره فقد تعمد تهريب أمواله وأموال غيره إلى أمريكا حتى لا يعيش فقيرًا! لا لم أكن أستطيع أن أفكر في هذا! ولم أستطع يومًا.. فمن يرى أشرف لا بد أن يتعاطف معه. هو فقط يعشق اللعب!

* * *

ذهبت إلى الدرس الخصوصي ثم ركبت القطار كما أفعل كل يوم، درجة ثانية. جلست على المقعد الأزرق الجلدي وأنا أحملق في لا شيء. حتى سمعت صوتًا رتيبًا: التذكرة!

أعطيته الأبونيه! ثم أغلقت عيني ورحت مع خيالي. ترى هل هناك امرأة ما ستجده وتنقذه من مشكلته؟ ترى هل هو على اتصال بلبنى؟

كنت أعرف أنه ليس على اتصال بها. ماذا تفعل الآن؟ هل نسيته؟ وهل كانت ستتصالح مع نفسها ومعه لو عرفت ما آل إليه حاله؟

كانت لبنى تسيطر عليَّ وأختي أيضًا. كنت قلقة عليها وكنت غاضبة منها ولم أكن أفهم كيف يعرف الجميع بزواجها العرفي ولا يعترض أحد! حتى أبي لم يعد يعترض. كان يعترض في البداية ولكن زوجها قد أمن لها مستقبلها ثم الزواج أصله الإشهار! وزوج سالي قد أشهر زواجهما والكل يعرف ما عدا زوجته وأولاده. وكنت أكره مصير أختي وأرفض الزواج وكنت في السادسة والعشرين وما زلت أرفض الزواج.

* * *

جلست أختي وتنهدت وهي تسوي حاجبيها بملقاط صغير في عصبية وقالت لأمي: تغار مني يا ماما! آه من زوجته هذه! تكرهني.. سيدة قبيحة بكل معنى الكلمة.. تعرف أنه لا يريدها ومع ذلك تتشبث به هي وأطفاله الفاشلون هؤلاء.

قالت أمي في تأثر: يا عيني على حظك يا بنتي!

قالت سالي في نفس العصبية: تكرهني يا ماما.. تكرهني لأنه يحبني كل هذا الحب.. ولكن حظي التعس جعلها في طريقي.. لو ماتت.. لو غارت في ستين داهية.

رمشت عينايَ وأنا أرى القسوة على وجه أختي الصغيرة ثم همست: سالي..

لم تنظر لي، نظرت لابنها وهو يأكل قطعة من البيتزا وقد أغرق نفسه في الصلصة ثم قامت وضربته على يده وهي تتجه بالطبق إلى المطبخ وقالت: حمار! مخلفة حمار! الله يخرب بيوتكم كلكم!

قالت أمي مسرعة وهي تهدئ الطفل: تحتاجين إجازة يا حبيبتي.. سوف آخذ حبيبي معي اليوم.

بلعت ريقي في ألم وأنا أتصور خطابًا جديدًا لأشرف، ثم همست: سالي ابنك ما ذنبه؟

صاحت في ألم: وأنا ما ذنبي؟ ما ذنبي يا وفاء؟ الكل يحاول تحطيمي، الكل لا يأبه بي أنا..

قاطعتها في قوة فجأة: ولكنك لا تفكرين إلا في نفسك.

ترقرقت الدموع في عينيها وقالت في تلقائية: ولكنك لم تفقدي زوجك بعد أقل من سنتين زواجًا ولا تعرفين ما معنى الحرمان ولا تعرفين ما معنى الترمل ولا تعرفين ما أعانيه! لماذا أنجبت إذن؟ حظي التعس!

قلت في حنان: سالي إرادة الله.

قالت في حسم: إذن لا تتدخلي أنت..

هززت رأسي في يأس وأمسكت بحقيبتي لأتجه إلى الباب، فقالت هي مسرعة: وفاء لا تغضبي مني.. إنها زوجته الأولى في عقلي طوال الوقت تحرضه ضدي وتكرهني!

قلت وأنا أجلس من جديد: بالطبع تكرهك.. ماذا تتوقعين؟ هي أيضًا ضحية.

قالت في تأكيد: لا هي تستحق كل هذا، قلبها أسود ونيتها وحشة وقبيحة.

قلت في تهكم: هذا رأيك؟ أم رأيه؟

قالت في فخر: رأينا معًا!

وفي ذلك اليوم انتقل ابن أختي للعيش معنا حتى تتفرغ أختي لزوجها وزوجته!

وكنت أتذكر أختي عندما مات زوجها.. كانت متماسكة طوال الوقت تتقبل العزاء في هدوء حتى رأيتها يومًا جالسة في حجرتنا القديمة على الأرض في الظلام تبكي بكاءً مريرًا لم أر في قوته من قبل، أخذتها بين ذراعيَّ وهمست في ألم: معلهش يا أختي معلهش.. هو ارتاح.

قالت في حنق: هو ارتاح.. طبعًا هو ارتاح.. وانا... وانا

ومنذ ذلك اليوم كانت تتحاشى ذكر اسمه، ومنذ ذلك اليوم لم تبك أبدًا. ولا أدري أكانت تحسده لأنه مات أم تحنق عليه أم تشفق على نفسها أم أنها قررت أن تعيش من جديد!

وفي ذلك اليوم وأنا أجهز الشاي لأمي وأختي اقتربت مني أختي وقالت في خبث:

لماذا ترفضين الزواج؟ مازلت تحبين أشرف؟

فاجأتني سالي، فقلت في تردد: أنا..

قاطعتني وهي تضع الكريم على يدها: الجو في القاهرة يجفف اليدين.. وفاء.. كل الناس ترى حبك لأشرف كلنا نعرف يا وفاء.. أشرف..

صمتت وكأنها تفكر ثم قالت: أشرف جميل.. رجل جميل.. ولكنه رحل منذ سنوات كثيرة.. ألم تلاحظي هذا؟

ارتجفت يدي وأنا أقول: أشرف رحل أعرف.

قالت وهي تتمدد على الكرسي وتضع الكريم على ذراعيها: لا، لا تعرفين.. لم تلاحظي هذا؟! ماذا تنتظرين؟طنط علية عندها عريس دكتور وأنت الآن

في أواخر العشرينيات والعمر يجري بك!

قلت مسرعة: لا أريد «عريس» من عند طنط علية.

قالت سالي وهي تضحك: لا تقلقي هو رجل محترم، لقد رأيته يا وفاء أرجوك فقط قابليه، لا تحطمي والديك هكذا من أجل رجل رحل منذ عشر سنوات.

قلت مؤكدة: أنا لا أفكر في أشرف ولم أفكر فيه من قبل قط.

نظرت إليَّ في تحدٍّ ثم قالت: حسنًا فلتقابلي العريس الدكتور إذن؟

قلت في تلقائية: لن أفعل.

ولم يمر الكثير حتى قررت أختى الصغيرة فرض الوصاية عليَّ وبدأت خططها ودعت عمتي علية والعريس إلى بيتها ووجدت نفسي أجلس في الصالون المذهب في حجرة الصالون في بيت أختي، ورأيت العريس جالسًا في عدم ارتياح.. لم أنظر إليه. نظرت إلى عمتي والفخر يعلو وجهها وأختي وهي تزهو بالطاقم الصيني الجديد ولم تذهلني المفاجأة فقط أشعرتني بأنه بعيد بعيد جدًّا.. حبيبي.

بدأت عمتي في الكلام في قوة: وفاء ربنا يحميها بنت متدينة وبتشتغل في مدرسة بنات بس طبعًا حتسيب الشغل بعد الجواز.. مش كده يا وفاء؟

قلت في ثقة: لا مش حسيب الشغل عمري.

بلعت أختي ريقها في ارتباك ثم قالت للعريس: وانت ناوي على إيه يا دكتور؟

قال في هدوء: حسافر للخليج طبعًا، البلد هنا أصبحت صعبة قوي وحضرتك يا آنسة وفاء إيه رأيك؟ الحياة في مصر بقت صعبة مش كده؟

قلت في ثقة وأنا لا أنظر إليه: نعم صعبة.. سيطرة رأس المال تجعل الحياة صعبة في كل مكان. أنا لا أعترض على وجود أغنياء ولكن يجب أن يكون هناك حق للفقير في مال الغني.

قالت عمتي في فخر: أصل وفاء بنت متعلمة وبتعرف تطبخ كمان وعمرها ما خرجت كده ولا كده بنت من عيلة.

نظرت إلى عمتي وأنا لا أدري لماذا تفعل هذا؟ كنت دائمًا أرى عمتي عدوًّا لأشرف، عدوًّا لا يعرفه، ولم أكن أدري أكانت تكرهه كل هذا الكره أم تحبني أنا أم تريد أن تفرض سيطرتها على كل أفراد العائلة.

وتمنيت أن تنتهي هذه الأمسية بسرعة. بدأ العريس في الكلام معي.

فنظرت له لأول مرة وقشعريرة تسري في جسدي. كيف أعطي نفسي له وهو ليس أشرف. وهل أستطيع؟ ولم أزل مقتنعة أن المرأة تعطي نفسها للرجل ولم أكن أستطيع أن أعطي نفسي لهذا الرجل..

ابتسم وقال في هدوء: حضرتك من دمنهور طبعًا، أهل البحيرة أحسن ناس.

قلت في اقتضاب:لا أدري.

وربما ظن أنني خجولة.

فأكمل في حماس: لو حصل نصيب إن شاء الله حتتبسطي، في الخليج الحياة سهلة وكل شيء متوفر حتى الأكل المصري. أنا بحب الملوخية قوي، بس الملوخية الطازة بس أما الملوخية المجمدة ده..

قالت عمتي في حماس: متتكلش! ووفاء بتطبخ ملوخية روعة!

قلت في جفاء: لم يعد عندي وقت للطبخ.

وسمعت همسات أشرف: يومًا ما سأطبخ لك!

أين هو من سحر أشرف ورقة أشرف.. نعم ربما لم أكن أحب رقته.. ربما صنعته من خيالي ولكنني أحبه هو إذا كان رقيقًا أو عنيفًا أو قاسيًا ولا أستطيع تحمل قسوة غيره ولا رقة غيره.

ماذا كان يقدم لي هذا الرجل؟

حياة هادئة ربما، مملة ربما.. حياة أصبح فيها زوجة تفكر كيف تطبخ الملوخية، وكيف توفر من مصروف البيت، وكيف تسعد زوجها و...

لا بأس.. لو كان أشرف ربما كنت سأتقبل تلك الحياة.. ولكن أشرف لم يكن مثل هذا الرجل. أشرف كان سيمنحني خبرة بائعي الفستق ويسقيني من بلاده المختلفة، أشرف كان سيفتح لي باب المغارة. أشرف كان.. كم أفتقده!

وعندما رحل العريس شعرت بارتياح غريب وفجأة انفجرت أختي الصغيرة في: ايه الهبل اللي قلتيه ده! شغل وفقر وكلام فارغ!

نظرت لها في غضب ولم تكن أبدًا صديقة لي، ولكنني ربما كنت قاسية معها في الماضي وأصبحت هي قاسية معي، في الحاضر نظرت لي عمتي في ترقب والكل ينتظر ردي..

قلت في هدوء: أنا لا أريد الزواج يا سالي وأنت تعرفين هذا.

ابتسمت في تهكم ثم نظرت لعمتي وقالت: تريد أن تعمل.. وتكسب بعرق جبينها، غاوية بهدلة!

قلت فجأة في حماس وبعض السذاجة: أنت أيضًا لماذا لا تعملين لماذا؟ إذا كانت ماما تراعي ابنك، فماذا تفعلين طوال اليوم؟ لا شيء! تنتظرين قدوم زوجك فقط لا شيء آخر.. هذا لا يكفي يا سالي أنت ذكية وحصلت على الثانوية العامة، صدقيني افعلي شيئًا لنفسك.

كانت غاضبة وخاصة لأنني أقول كل هذا أمام عمتي، ولكنها تمالكت نفسها وقالت: لا أحتاج أن أعمل الحمد لله جوزي مكفيني وكمان مش عايزني اشتغل!

قلت في حماس: ليه! كم هو أناني مش كفاية إنك تنتظرينه باليومين والثلاثة!

قالت في حسم: أنتظره يومين أو ثلاثة ولا أنتظر رجلاً لا يريدني ولن يعود.. تفهميني يا وفاء.. رجلًا لم يحبني يومًا، رجلًا ربما تزوج الآن مرة واثنتين وثلاثًا!

لم أنطق.. كانت صفعتها قاسية.. وجاءت أمام عمتى علية!

لم أكن أستطيع النطق.. وكانت الحرارة تتسرب إلى وجهي..

نظرت إليَّ عمتي في ذهول ثم قالت: أشرف؟ تنتظرين أشرف؟ وفاء..

قلت في صوت مبحوح: هذا كذب.

قالت عمتي في تأثر: الشيطان لعب في دماغك يا بنتي.. ده صايع ومنحرف، اعقلي يا وفاء..

قلت فجأة في عدوانية: دائمًا تتهمينه بأنه صايع ومنحرف وكأن هذه الاتهامات كفيلة أن تقنعني أن أكرهه وأنا لا أظن أنه صايع ومنحرف ربما تربى في بلد مختلف وبطريقة مختلفة ولكنه ليس منحرفًا و...

قالت عمتي مسرعة: لا تكرهينه إذن.. تحبينه؟

قلت في يأس والدموع تظهر في عيني: نعم أحبه.. أحبه وأتمنى أن أتزوجه وهو لا يريدني.. وإذا كان يريدني كنت الآن سأكون معه في أي مكان.

فتحت عمتي فمها في ذهول وقالت: تستحقي الموت صحيح، وأد البنات ده نعمة! يا ريت أبوك قتلك قبل ما..

قاطعتها أختي في ارتباك: عمتي هي بس أعصابها تعبانة هي مش بتحبه ولا حاجة ووفاء عاقلة أنا حتكلم معاها..

قلت في إصرار: أنا أحبه، لماذا أدافع عن نفسي ماذا في ذلك؟! أحبه.

قالت أختي في قوة: كفي عن هذا.. لو قالت عمتي لبابا.. وفاء..

قلت في يأس: ماذا ستقول؟ إن ابنتك مجنونة تحب رجلًا رحل منذ سنوات ولم يبادلها المشاعر أبدًا. وهل سيعترض أبي على حبي المستحيل لأشرف وهو لم يعترض على زواجك العرفي من رجل متزوج؟

انهمرت أختي في البكاء وقالت في مرارة: كل هذه القسوة يا وفاء.. طوال عمرك تغارين مني! لماذا؟

قالت عمتي في ازدراء: مفيش خشى ولا أدب! الله يلعن كل البنات وخلفتهم. ده انت عار على العيلة يا وفاء!

وانتفضت من مكانها لترحل فقالت سالي في ترجٍ: استنني بس يا عمتي..

ربتت عمتي على كتف سالي قائلة: معلهش يا حبيبتي أنت معملتيش حاجة غلط الراجل من حقه يتجوز واحدة واتنين وجوزك راجل محترم. والجواز شرطه الإشهار وكلنا عارفين إنك متجوزاه ومضحية علشان مراته متعرفش..

ثم نظرت لي وأكملت في جفاء: جوزك مش حرامي ولا هربان من حاجة!

ثم قامت وأخذت حقيبتها وقبلت سالي قائلة: ربنا معاك يا بنتي.

وما إن رحلت حتى شعرت بارتياح غريب ومسحت دموعي وأنا أقول: ارتحت يا سالي كل الناس تعرف أنني أحبه.

قالت في يأس: غبية... لو أخبرت عمتي بابا.. لو أخبرت كل أقاربنا.. سيرتك حتبقى على كل لسان.. لماذا يا وفاء؟

قلت في جفاء: هي غلطتي أنا إذن! عن إذنك يا سالي عندي شغل.

ثم قلت قبل أن أفتح الباب: أنا لا أغار منك يا سالي.. ليس الآن.. في الماضي ولكن ليس الآن.

لم تجب.

ولا أدري هل أخبرت عمتي أبي أم لا؟ ولم يفاتحني في شيء ولم يتكلم معي على العريس ولم أتساءل يومًا لو كان يعرف، ولكنني أعرف أنه كان لسبب ما يحترمني. ولا أدري هل أصبحت سيرتي على كل لسان أم لا؟

لم يكن عندي وقت لأستمع لسيرتي أو سيرة غيري. كنت مشغولة بالعمل وبه هو.

وبعد بضعة أيام تصالحت مع أختي كالعادة بعد أن مزق كل منا الآخر في ضراوة. وكنا نفعل هذا كثيرًا.

وكنت في انتظار خطاب جديد.

وكانت خطاباته متقطعة ونادرة، لكنها كانت صادقة وكأنه يسكب قلبه في صفحات، بل في الغالب في صفحة واحدة موجزة.

وبدأت أكتب في صدق وإيجاز: أشرف لا تفقد الأمل. لماذا لا تعود إلى مصر؟ مصر هي بلدك يا أشرف. فلتعد من أجلي ومن أجل.. نفسك. أفتقدك.. أفتقد صورتك ولكنها لا تترك خيالي. وكما تغلبت على الأسى واليأس ستتغلب أنت عليه. فأنت كل الأمل. أنت.. أنت كل شيء. فلتعد إلى مصر يا أشرف. أعرف أنك لم تشبّ بها ولكنك مصري. وجهك مصري وكلامك مصري و.. لا بأس. فقط خلِّي بالك من نفسك. فأنا.. لم أزل أحبك!

كان عليَّ أن أخبره.. أن أذكره بمشاعري.. ربما يعود.

وما كان يحيرني في خطاباته هو أنه كان في الغالب يتجاهل كلماتي ويكتب ما يريد أن يكتب وكأنه يكتب لشخص مجهول!

كان يسكب مشاعره. وبدأت أشعر أنني لا شيء بالنسبة له. ولكنه كان دائمًا يقول: «يا وفاء». هو يعرفني إذن. يعرفني جيدًا. في الحقيقة كان يعرف أدق الأشياء عني، كان يعرف ضعفي وجنوني وربما شجعه هذا على سكب مشاعره.

* * *

ثم كتب من جديد:

«كنت أجلس على السور القديم أمام بيتي الذي أعيش فيه مع جيراني المقززين... جلست لألتقط أنفاسي ولسبب آخر..

لأني أكره رائحة العرق والخمر والطماطم المحروقة القديمة التي تسيطر على البيت... اختلست عيناي نظرات إلى الحائط القديم وألوانه الحمراء والزرقاء... كلمات وحروف وقلوب كلها مرسومة على الحائط.

شعرت بيد تلمس كتفي.. نظرت خلفي... هي.. صديقة بيدرو... لا أدري من أين تأتي؟ ربما هي من أصل شرق أوروبي ربما... كانت نحيفة شديدة النحافة

وشعرها الأشقر متدلٍّ على ظهرها وكانت تقززني... ملامحها الباهتة وعيناها المكسورتان الباردتان تخيفانني.

أبقت يدها على كتفي ثم همست: لا تضرب النساء أليس كذلك؟

- معذرة

- همست في صوت مليء بالدموع: هو يضربني... تسمعه كل ليلة، أليس كذلك....

نظرت لها في ذهول ثم شعرت بما تريد. كنت أعرف ماذا تريد وكنت أشتاق إلى امرأة... ولكني لم أعتد أن أشتاق إلى أي امرأة وكل امرأة... اقتربت مني.. رائحة الخمر تفوح من فمها... لا أتذكر ما حدث بعد ذلك... ولكني كنت أشعر بالقرف منها.. هل تصدقينني يا وفاء... لا.. لن يصل بي الأمر إلى أن أقبل امرأة كهذه ولا أن ألمس امرأة كهذه بعد كل ارستقراط بريطانيا بعد حبي للبنى بعد...

لم تمر دقائق حتى خرج بيدرو من البيت وبدأ معي تشابك بالأيدي.

ولأول مرة في حياتي أضرب رجلًا كل هذا الضرب وأشعر براحة غريبة وفخر مخيف وبيدرو ينزف بين يدي.... مسحت الدم من أنفي وسرت في الشوارع المليئة بالبيوت الحقيرة والأصوات العالية والصراخ والمخدرات والعاهرات وشعرت براحة لم أشعر بها منذ وقت.

ولكن ما لبثت أن كرهت نفسي وشعرت بالتقزز من كل شيء.... متى يأتي المال من أمي؟ أو حتى شهادتي التي لم آخذها معي أو حتى.... كم أكره الفقر يا وفاء. وعقلي الغبي الذي نسي الرقم السري كما نسي قاسم أخو علي بابا كلمة السر. ولكن قاسم كان طماعًا أما أنا فقط أريد أن أعيش كما كنت..

***

كنت أتصور أشرف وهو يجلس على السور القديم ويمارس الحب مع الفتاة الشرق أوروبية. كنت أرى اليأس في عينيه والازدراء وكنت أغار بعض الشيء.

وأشفق عليه وأتمنى أن يعطيني الفرصة لأحبه كما أريد.

كتبت في تلقائية: أشرف؟ هل مارست الحب معها؟ لا تكذب عليَّ أنا أعرفك جيدًا! لا يمكنك أن تفعل هذا مع صديقة رجل آخر حتى ولو كان يهينها

حتى ولو عرضت نفسها عليك! قل الحقيقة.. أمازلت على علاقة بها! أنا فقط، أسألك لأنك من لحمي ودمي!

كنت أنتظر الإجابة. وندمت على الكلمات التي قلتها كانت سريعة وغبية!

فكتبت من جديد: لا تغضب مني.. من حقك أن تحب وأن تعيش ولكن تحتاج إلى.. من تقدرك وتعشقك. مع حبي... وفاء

بعثت بهذه الرسالة القصيرة.

وجاء الرد بعد أسبوعين:

«وفاء.. أنا لست غاضبًا منك. لا أستطيع، فأنت من لحمي ودمي كما تقولين. وماذا أيضًا؟ أنت مثل أختي! وأختى لا تتكلم عن هذه الأشياء عيب يا وفاء! أنت بنت متربية! والَّا اتغيرت؟»

وكنت أرى ضحكاته في الرسالة وكانت رسالة دافئة!

استمرت حياتي والزمن يدور حول رسائل أشرف القصيرة. ذهبت إلى أختي قبل رسالته الأخيرة وأخذت أجري عن الدروس الخصوصية بعد رسالته الأخيرة.

وبعثت له برسالتين دون أن يكتب شيئًا. في أول رسالة رجوته أن يعود إلى مصر:

«أشرف. أرجوك لماذا تتجرع الذل في بلاد الخواجات؟ فلتعد إليَّ وإلى مصر. أرجوك أنا أحبك وحتى لو لم نصبح أغنياء فيكفيني أن أعيش معك. لا أريد أي شيء آخر سوى العيش معك. سوف أسعدك وأسهر على راحتك ولن تتجرع هذا الذل. أرجوك يا أشرف. أنا أحبك!»

كانت رسالة طويلة وكلها تقول نفس الشيء. ولم يجب. ربما ظن أنني حمقاء. وأنني لا أنطق إلا بالهراء.. أحبك.. عد إليَّ.. على الحلوة والمرة معًا! عد إلى وطنك!

لا بد أنه ابتسم في تهكم وهو يقرأ رسالتي! وربما كرهني؟ هذا إذا كان قد أحبني أصلًا.

مر شهر ولم يكتب لي. ثم شهر آخر وبدأت أقلق وكتبت من جديد:

«هل قلت شيئًا أغضبك؟ لا تتوقف عن الكتابة، فإذا توقفت.. » فكرت قليلًا. لم يكن يحب التهديد ولا الوعيد. فأكملت: «تكلم معي. ألسنا أصدقاء؟ عندما تجد الوقت اكتب لي. لا.. اكتب لي الآن. فلم يعد عندي صبر».

نفخت في غيظ من كل كلماتي الغبية.

وبدأت أخبره عن حال أختي وأمي وكريم والجيران. وكتبت له عن كل الناس ما عدا عنه وعني!

وكانت أمي تلح عليَّ لأتزوج، وكم من مرة انفجرت وصاحت: بطلي الجنان ده! بتحلمي بإيه؟ هو حد يعرف أراضيه!

كنت أتجاهل كلماتها في هدوء ولا أحاول إقناعها. وأتكلم في أي موضوع سوى موضوع زواجي.

وكم كنت أحسد لبنى من أجل لمساته لها وضمه لها ولكنني لم أحسد أي فتاة أخرى عرفها ولم أشعر سوى بالفخر وهو يكتب لي عن هذه الفتاة في أمريكا صديقة بيدرو. فلا بد أنه يثق بي. لا بد أنني قريبة منه إلى حد ما. وكانت التفاصيل الدقيقة والمشاعر الحية التي تظهر في خطاباته القصيرة كفيلة بأن تعولني أيامًا وأيامًا. كانت قوتي وملاذي وولي أمري!

ثم كتب:

«الإنسان يظن أحيانًا أنه انتهى من أشخاص معينة للأبد. تفهمين ما أقصد .... مثلًا لبنى لم تترك مخيلتي يومًا ولم تهدأ كرامتي ولا خمدت كبريائي. لبنى التي ضحت بي وبمالي من أجل معتقداتها وإيمانها بقضية ما لم أفهمها.... ولم تفكر ولو لثوانٍ أن قضيتها ومعتقداتها ربما يكونان بلا أي قيمة، فقط ربما... في الأيام الماضية شعرت بشجن غريب وارتياح شديد لم أشعر به منذ زمن، وشيء آخر لا أستطيع أن أصفه...

ذهبت إلى كاليفورنيا لحضور مؤتمر عن اقتصاد الشرق الأوسط.... في الحقيقة لم يكن هناك أي سبب لذهابي.. فقط شعرت بحنين لرؤية الأغنياء والمثقفين.... حنين للحياة التي فقدتها للأبد. وبدأت أشعر أحيانًا بأنها لن تعود.

ما علينا! كنت أقود سيارتي الصغيرة إلى كاليفورنيا وأنا أشعر بتبلد غريب وكأن عقلي يتآكل من قبل عنكبوت مخضرم يسكره أولًا ثم يأكله في بطء... شعرت بكره واحتقار لنفسي، لم أشعر بهما أبدًا من قبل.... حتى وأنا أعيش في البيت العفن مع بيدرو وجاك.

لماذا أذهب إلى هذا المؤتمر وبأي صفة؟ لا أهتم باقتصاد الشرق الأوسط ولا مشاكل الشرق الأوسط ولا أهتم بأي شيء سوى احتقاري الشديد لنفسي... أعرف ماذا ستقولين... إن عليَّ ألا أحتقر نفسي لأنك تحبينني...

أنا أضحك الآن يا وفاء عليك وعلى سذاجتك وعلى جنونك.... ماذا تتوقعين وماذا تريدين ؟ لم أعد أدري... ولكن لا بأس فلنتكلم عن موضوع آخر.. اقترضت مائة دولار وادخرت خمسمائة لأبقى في الفندق يومين.... فقط يومين وأشعر بأني غني وتأتي السيدة كل يوم في الصباح لتنظف الفوط؛ سألقي بها كلها على الأرض وسأتمدد على سريري وأراها تلتقطها من الأرض وتضع بدلًا منهما فوطًا نظيفة. سأتنهد وأنا أشاهد القنوات الفضائية والدوش القوي يصطدم برأسي والمياه تغمر جسدي وسأشعر بسعادة لم أشعر بها من قبل....

ماذا كنت أقول؟

آه وفاء.... كنت أتكلم معك عن المؤتمر... وكل بدل المؤتمر وكافيار المؤتمر وأناقة المؤتمر... لقد قررت أن أقضي إجازتي السنوية في مؤتمر في كاليفورنيا كل عام. فقط يومان أشعر فيهما بكل هذه العظمة والفخر.

ماذا أملك الآن... آه بالمناسبة والدتي ستزورني هذا العام وعندما أحصل على الجنسية الأمريكية سوف أصبح أكثر ثقة وحرية وستنتهي قضية البنك والعقارات للأبد.... سأصبح إنسانًا آخر أمريكيًّا. وربما أحصل على مالي.. من يدري!

حسنًا ماذا كنت أقول؟

جلست أستمع إلى كلمات المؤتمر ومحاضرات المؤتمر وأشاهد الملابس الأنيقة والعربات الفاخرة وكل من يهتم بمشاكل الشرق الأوسط من أوروبيين وأمريكان ويابانيين ولا أدري ما الذي يجمعهم، ولماذا اهتمامهم بالشرق الأوسط! وما هو الشرق الأوسط؟ تركيا، إيران، إسرائيل.. مصر والوطن العربي؟

مجموعة غريبة ولا أدري من جمعها في هذه الخانة الضيقة سوى حظها التعس وجغرافيتها القديمة! وأصحاب القرار والإرادة بالطبع!

أغمضت عينيَّ وسمعت من يتكلم بإنجليزية رديئة ولكنها واضحة! وكانت هي..

كنت أتكلم عن لبنى.... التي رفضتني وجرحتني...

رأيتها يا وفاء، قابلتها في المؤتمر الاقتصادي....

أصابتني نوبة عارمة من الضحك حتى اضطررت أن أترك الحجرة.... هل رأتني؟ ربما.... لم أضحك لأني رأيتها بل ضحكت لأنها كانت تتكلم عن اقتصاد

الشرق الأوسط وتنمية الشرق الأوسط وديمقراطية الشرق الأوسط.... لبنى ثابت التي أحببتها ولم أقتنع من قبل بكلمة مما تقول ولم آخذها بمأخذ الجد أبدًا...

كانت تتكلم عن الديمقراطية في أمريكا! لبنى ثابت الشيوعية التي تحملت السجن وضحت بي ورفضت أن تبقى معي في فندق خمس نجوم ورفضت عقدًا ذهبيًّا وخاتمًا من الألماس ورفضتني.

وفاء.... لا لم أصب بالجنون... لقد رأيت لبنى اليوم.

نعم تأثرت.. نعم شعرت بقلبي يخفق بشدة للحظات. ولكني تمالكت أعصابي وجلست في بهو الفندق الفخم أتوقع مجيئها في أي لحظة. ستأتي... كنت أعرف أنها ستأتي... لبنى. مشاعري تجاهها متضاربة، غضب وشوق وفتور.. عشر سنوات مرت منذ رأيتها. هل تغيرت ؟ نعم تغيرت... شعرها الأسود أصبح أحمر.... عظام وجهها ازدادت بروزًا بدت أكثر نحافة وأكثر تجاعيد ولكنها لم تزل ترتدي بنطلونها الجينز وتربط شعرها ذيل حصان كما كانت تفعل في الماضي... لم تزل تحرك أصابعها في كل اتجاه في عصبية... كل هذا رأيته في لحظات. لبنى هي لبنى التي كانت تضمني بقوة وتصيح: أحبك يا أشرف يا إقطاعي يا مستغل الفقراء!

ابتسمت لنفسي وكأنني أتذكر أول حذاء اشترته لي أمي وأنا ذاهب إلى المدرسة.. كان أسود لامعًا كحذاء أبي.... ماض وانتهى... لا بد أن ننسى الماضي يا وفاء.... فاهمة... انسي يا وفاء.. لا تتعلقي بحبال ذائبة.... لم يكن بيننا شيء أصلًا... هل تتذكرين؟... لا أعرف لماذا أكتب لك. ربما عليَّ أن أتوقف. لن أكتب لك بعد الآن ولكنك تريدين أن تعرفي ماذا حدث بيني وبين لبنى.... أريد أن أخبرك بما جرى يا وفاء، لا أدري، عليَّ أن أخبر أحدًا وأنا لا أعرفك حقًّا أعني لم أعرفك. وأنت لا تعنين شيئًا بالنسبة لي فلماذا لا أخبرك؟

شعرت بخطواتها السريعة... صاحت في ذهول مصطنع: أشرف!

نظرت إليها.. لم أتحرك من مكاني. كنت جالسًا على المقعد المبطن الكبير وأنا أضع رجلًا على رجل وقلت في فتور: لبنى..

جلست بجانبي على الأرض وقالت في حماس طفل: أشرف.. هنا في كاليفورنيا، أشرف بالطبع .. كان عليَّ أن أتوقع هذا.. تعال معي..

ابتسمت ابتسامتي القديمة في انبهار من حماسها: إلى أين؟

أمسكت بيدي وجرتها وهي تقول: تعال معي يا أشرف سنخرج معًا.

قمت في ذهول فأوقفت تاكسي وقالت بالإنجليزية: فقط طف بنا ساعة أو ساعتين...

ثم فتحت الباب وجلست بجانب السائق.... فابتسمت في تهكم... لم تزل هناك آثار لشيوعيتها إذن...

- ألن تجلسي بجانبي؟

قالت وهي تحرك يدها في عصبية: لا بالطبع لن أجلس بجانبك.. أولًا لا أرى داعيًا لأن أضع حاجزًا بيني وبين السائق فنحن سواسية. كلنا سواسية..

ضحكت قائلًا: ماذا تفعلين في أمريكا يا لبنى؟

- هذه قصة طويلة.... لماذا أعطيت أخي هذا المبلغ؟ لتنتقم مني؟

فكرت هنيهة ثم قلت: ربما.... ماذا فعل بالمبلغ؟

- تزوج به يا أشرف.

- كنت أظنه سيبدأ مشروعًا.

- بدأ مشروعًا فعلًا.. مشروع زواج.. عاش يومًا أو اثنين والآن هو عاطل يعتمد عليَّ كالعادة.

- لماذا تجلسين بجانب السائق يا لبنى؟

قالت وهي تخرج سيجارتها وتبدأ التدخين: أخشاك يا أشرف.

أشار لها السائق بأن تتوقف عن التدخين، ثم أشار إلى لافتة «ممنوع التدخين» فصاحت بالإنجليزية: مادمت أنا أدفع لك.... فأنا أضع القواعد.... توقف هنا... أريد أن أجلس في الخلف!

انطلقت مني ضحكة من قلبي وأنا أرى حبيبتي كما هي تتبنى قضية ولا تعرف ما هي، تؤمن بشيء ونقيضه، تخدع نفسها وتغضب من كل شيء.. وكنت أسمع أمريكا تتكلم.. في لبنى سمعت أمريكا.

توقف السائق.... فخرجت .... جلست بجانبي.. اقتربت مني وهمست: تزوجتُ يا أشرف؟

- أهذا سؤال لي؟ أم اعتراف منك.

اقتربت أكثر وهمست من جديد وهي تدخن سيجارتها: اعتراف.... تزوجت زميلي .. أتتذكره.... الصحفي العراقي.. أول رجل في حياتي..

نظرت إليها في ذهول: هنا في أمريكا؟

- هو يريد تغيير كل شيء.... بداخله نفس غضبي ونفس.... أشرف أنت تعرف حال العراق... زوجي ضد النظام.. زوجي عانى سنوات، تعذب في المعتقل... قتلوا أمه أتصدق هذا؟ المخابرات دخلت بيته تبحث عنه بعد خروجه من المعتقل وعندما لم يجدوه قتلوا أمه. بالطبع يكره النظام والقائمين عليه. نظام ظالم بربري. ألم أقل لك من قبل، خرج من المعتقل رجلًا لا أعرفه. مهند زوجي سوف يغير شيئًا... هو الأمل في الغد.... سيعود يومًا إلى بلاده ويكون له شأن هناك.... هو يستحق بعد كل الذي عاناه، يستحق أن يكون له شأن في العراق.. أتفهم ما أقصد ؟

- لا

نظرت إليَّ برهة ثم قالت: أهم شيء في الدنيا أن يكون عندك حرية التعبير عن نفسك.... ديمقراطية أو شيوعية، المهم الحرية.

ابتسمت في أسى وقلت: أهم شيء في الدنيا أن يكون عندك قوت يومك... المال يا لبنى يصنع العجائب.

- كيف حالك يا أشرف؟ هل تزوجت؟

هززت رأسي بالنفي وقلت في ثقة: أنا بخير... أعمل في فرجينيا... وأنت؟

- أعيش هنا الآن مع زوجي وأدرس للحصول على الدكتوراه في دراسات الشرق الأوسط ويومًا ما..

قلت في شيء من الملل، شيء من الغيظ:

- لا أريد أن أعرف .... سعيدة.... ؟

قالت في حيويتها المعهودة: بالطبع لا.... لم أكن يومًا سعيدة.. ليس بعد... هموم العالم العربي تؤلمني.

ربتُّ على يدها وأنا أقول في سخرية: أرجوك لا تقولي هذا... أنت هنا الآن في أمريكا.. ما شأنك وشأن العالم العربي؟

قالت مدافعة:

- لا تفهمني.... عالمنا لا يترك مخيلتي.. أفكر في أمي وأخي وشارعنا في إمبابة وحال عمارتنا القديمة وحال جيراننا والأفكار و....

قلت في حماس وغضب: كفي عن هذا الهراء! تريدين أن تقنعيني بأنك مازلت شيوعية هنا في أمريكا.

قالت في غضب: مازلت أؤمن بالمساواة وأكره الظلم وسوف أحارب الظلم والمال مادمت حية! نعم شيوعية إذا كان هذا ما تقصد!

خرجت مني ضحكة جافة: أتخدعينني أم تخدعين نفسك! كل هذه السذاجة! ماذا تفعلين هنا؟

- أحارب من أجل الحرية، حتى إذا كان النظام هنا لا يعجبني فسأستغله لأصل إلى مرادي.. الحرية! أتمنى يومًا أن أصرخ بما أريد دون أن أنتهي في معتقل ما في بلد ما لمجرد أنني أفكر!

قلت في تهكم: مسكينة يا لبنى! أنت! أنت تستغلين النظام هنا! أهذا ما تقنعين به نفسك! سوف يستغلونك أنت وزوجك وأهلك وأباك وأمك! ياه يا لبنى أنت بكل هذه السذاجة. أم أنك تريدين إقناعي أنا فقط! أم أنك أصبحت أسيرة للرفاهية والاستهلاك! والموز والفستق والكافيار!

كنت أعرف أنها ستغضب، وتوقعت انفجارها الذي أعرفه ولكنها لم تغضب ولم تنفجر.

صمتت فجأة. ظهر الألم في عينيها واقتربت مني أكثر، وقبلت خدي فجأة في رقة وهي تغمض عينيها، وقالت: ندمت يا أشرف.. ندمت.. كنت صغيرة وتملكني الغضب....

شعرت بشفتيها على خدي، طرية مبتلة ودافئة دفء عنق الدجاجة المذبوحة لتوها. كانت دافئة وكنت أفتقدها وأغار منها وأخافها وأشعلت نارًا بداخلي، ظننت أنها ملت وخمدت من تلقاء نفسها. كانت دافئة ومختلطة بغضب ويأس ومرارة وسذاجة وعنف.

آه لبنى! ماذا فعلت بي وبك؟

لم أنطق.

أرحت رأسي على المقعد وأنا أتنفس في بطء ولا أدري أحيًّا كنت أم ميتًا، وقلت وأنا أغمض عيني: أراك يا لبنى.... أراك أستاذة في الجامعة في كاليفورنيا ترتجفين وأنت تتكلمين عن مشاكل الشرق الأوسط... أرى الدموع تحتبس في عينيك وأنت هنا في المنفى وأرى سيارتك المرسيدس الكبيرة وسائقك وزوجك السياسي الكبير الذي سيأتي بالحرية لبلاده.... أراك وأرى نفسي وأندم ولا أدري لماذا فعل بنا الزمن هذا.

- وماذا فعل بك الزمن؟

- لم يفعل شيئًا... المشكلة أنه لم يفعل شيئًا....

نظرت إلى عداد السائق ثم أمرته بالعودة إلى الفندق، وقالت: حرامي! يبتلعون المال هنا كما كنا نبتلع نحن حلوى العيد... أشرف.. هل تعيش هنا إذن؟

قلت مسرعًا: لا أدري، فلنتكلم في شيء آخر غيري وغيرك.... هل تأكلين الفستق الآن.. الفستق الأمريكاني؟

ضحكت ثم قالت فجأة والدموع تترقرق في عينيها: أريد طفلًا يا أشرف.... تزوجته لأني أريد طفلًا...

- و هو؟

- يريد طفلًا.... وأنت؟

أسئلتها تحرجني وكان هناك شيء واحد لم أكن أقوى عليه! أن تعرف لبنى حالي الآن! إلا هذا!

نظرت إلى ساعتي وخرجت من السيارة قائلًا: أنا متأكد أني سأراك قريبًا ومعك طفل، وسأقابل زوجك...

صاحت فجأة وهي تخرج: لا بأس هل ستدفع أجرة التاكسي على الأقل؟

ضحكت.... وأنا أخرج كل ما في جيبي، وقلت: على الأقل سأشعر أنني يومًا ما دفعت لك شيئًا.

نظرت إليَّ .. أطالت نظرها إليَّ ثم همست: أشرف..

ثم صاحت في غضب: كيف تركتني .. خائن!

نظرت إليها ولم أنطق. فتلاشت من أمامي في لحظات. والغضب يسيطر عليها.

النساء!

ما أعمق النساء! النساء ينظرن إليك بمنظور مختلف. من قال إن النساء تافهات؟ من قال إن النساء سطحيات؟ لا.. هن ينظرن بداخلك إلى حنايا حسابك في البنك!

وفاء.... لم أشعر من قبل برغبة في البكاء مثلما شعرت هذا اليوم... شعرت بالغيرة من زوج لبنى، بالغيرة من لبنى، بحقد على العالم. جلست في حجرة الفندق، وأغلقت الباب ونظرت إلى كف يدي وأنا في الأربعين.. لم أجن شيئًا.... وربما لا أصبح غنيًّا مرة أخرى.. ربما لن أصبح غنيًّا أبدًا... أنا في الأربعين وأعمل في بنك كما كنت أعمل وأنا في السابعة والعشرين... ولكن

وأنا في السابعة والعشرين كنت أعمل مستشارًا ماليًّا في بنك كبير بريطاني والآن اعمل على الكاشير في بنك أمريكي.... الآن أصبحت مثل المطار.. أصبحت أحمل الأموال لجهات مختلفة كما يحمل المطار الطائرات.... أصبحت وسيلة ولست غاية... أصبحت لا شيء. كم أشفق على المطارات وعلى نفسي!

لا بأس لم يكن من طبعي الإشفاق على نفسي. سأعود أغنى مما كنت.... لا تظني أنني لا أستطيع أن أكون غنيًّا الآن... بطرق غير مشروعة، ولكنني لم أعتد هذا. أظن أن العملية كلها عملية اعتياد إذا اعتدتِ السرقة فأنت خبيرة فيها، وإذا اعتدتِ الثراء فأنت ثرية. وأنا لم أعتدْ السرقة ولكنني اعتدتُ الثراء.

مسحت دمعة سقطت عن طريق الخطأ من عينيَّ وخرجت من بيتي إلى بيت أماندا. هل تكلمت معك عن أماندا؟ لا يهم. أماندا لا شيء.. هي مثلي أصيبت بكسر ما في منتصف الطريق ولم تستطع معاودة السير. أم وغير متزوجة، ولا تملك سوى طفل وعربة قديمة، وتعمل سكرتيرة في البنك. كنت أفكر فيها وما إن عدت حتى ذهبت إليها وأغرقت يأسي في يأسها، ولم نتكلم، فلن تفهمني ولن أفهمها. كانت تحتاجني، وكنت أحتاجها، ولبنى لم تترك مخيلتي.

المشكلة أنني التقيت بلبنى في وقت حمية الصبا. رفضتني وصفعت كبريائي. ربما لو كنا التقينا الآن ... ربما كنت أقل غرورًا وأكثر تعقلًا ربما كنت سأحاول مرة واثنتين وأعتقد أنها كانت ستوافق.

الحظ أحمق... تركتني لأني رأسمالي وها هي تتصبب بالرأسمالية في بلاد المال والحلم. ها هي تأكل الفستق كل يوم على الإفطار والغداء والعشاء. لو وافقت!! لو عاد بي الزمن.. هل أحبها بعد كل هذا العمر؟ ربما.. ربما لا ... ربما لو عشت معها كنت فسأملها كما أمل كل شيء وكما مللت الكثير من النساء، ولكن الآن أنظر إليها في حنق وغضب وغل وكره وأتمنى أن تغرق وتغرق في المال والرخاء حتى أنظر إليها وأضحك في سخرية على المبادئ التي كانت ستموت من أجلها.

وفاء.... لا يوجد مبدأ يستحق الموت من أجله، وما نؤمن به اليوم ننساه غدًا والسياسة لا تصنع الحياة.... انظري للعالم من حولك، انظري للحروب والدماء... ما السبب في كل تلك الحروب؟ أتظنين أن السبب هو المبادئ واختلاف الثقافات والأديان و... و... لا! السبب هو المال. الطمع والمال.

التسامح والحرية والصبر كلها خصال لا تأتي إلا بالمال. المال هو سبب المصائب كلها وكم أتوق إليه!.

وكان هذا هو أطول خطاب كتبه لي أشرف، وربما كتبه على مراحل مختلفة. وربما شعرت بغيرة طفيفة من لبنى أو أماندا هذه أو غيرها، ولكنها كانت طفيفة. ولم تكن غيرتي تقاس بفخري؛ فقد تكلم معي أنا وقد أراد أن يحكي لي أنا. كنت صديقته الوحيدة، كنت الدلو الذي يسكب فيه كل مشاعره، وكم عشقت كوني دلوًا!

لبنى ثابت من جديد..

السلطة إذن.. هل هي مطامع السلطة التي قضت على شيوعية لبنى؟ أم اليأس.. أم السن؟

ومتى عاد مهند إلى حياتها من جديد؟

كان أول رجل وكان ممتلئًا بالغضب، وكانت هي ممتلئة باليأس. لم يزل يريدها.. إذن فحياته كانت مفتتة ما بين المعتقلات والكتابات الغاضبة. وكان يريد أن يحكم بلاده هو، فمن أحق منه بعد كل ما لاقاه من النظام، وكان يتمنى أن يحدث هو الانقلاب، وكان محظوظًا؛ لأنه لم يقتل.

قابلته وقارنته بأشرف.. وبينما كان قلبها يخفق لأشرف وجسدها يذوب من لمسته كان عقلها مع مهند. وكان طموحه يغريها أكثر مما أغراها أشرف بحبات الفستق، وكانت تعشق السلطة والانقلابات، وكانت ترى نفسها تتحكم في مصائر البشر وهي بين مهند وبين طفلها، وكانت تتمنى أن ترزق بطفل ولا يشم رائحة المجاري في الصباح.

لماذا الآن؟.. حمقاء لبنى هذه.. إذا كانت ستتخلى عن مبادئها فلماذا الآن؟

وكنت أعرف الإجابة.. كانت تريد السلطة والانقلابات، ولم تكن تريد المال فقط وكان عرض أشرف عليها هو أن يجعلها أميرة كأميرات بريطانيا بلا صوت وبلا رأي سياسي، أما مهند فعرض عليها أن تناضل من أجل أن تقود ولم يكن هناك مقارنة بين العرضين!

وكان الطفل يصرخ ليخرج من رحمها ولم يخرج بعد، ولكنه طفل سيولد في أمريكا ليقود النضال ضد الظلم!

والمرأة.. ما أغلب المرأة! كم أشفق على المرأة وعلى لبنى بالذات.. المرأة لا تنسى أبدًا رجلًا مارست الحب معه.. وبينما لم تنس مهند وهي مع أشرف كان أشرف يسيطر على كل حواسها، أما الآن فعاد مهند، وأشرف لم

يزل في مخيلتها والمقارنة لم تكن في صالح مهند، أو أشرف، أو لبنى نفسها.. فلبنى لم يكن لديها خيال، ولمسات أشرف كانت تتلاشى من أمامها كما تتلاشى الجثث وسط قنابل الحروب.. وهذا ما كان يحزنها.. ذاكرتها الخائنة..

آه أشرف! وكانت الأحداث تدور من حولي وسفك الدماء أصبح من سمات الحياة اليومية في كل مكان في العالم. ولكنني لم أكن أهتم بالسياسة. وكان حلمي ليس أن أتذوق الموز بل كان حلمي هو. ولم يكن يعنيني غزو الكويت وحرب العراق و.. و..

ثم كتب:

«أعتقد أن هناك حدودًا لانحراف البشر، ومع اليأس والخوف تتلاشى كل الحدود. لقد قطعت علاقتي بأماندا اليوم. لم أعد أستطيع. هناك حدود حتى لأفعال البشر في لحظات اليأس. وكانت حجرة أماندا صغيرة، وكان عندها ثلاثة أطفال، ولم تكن تجد أي مشكلة في تقبيلي أمامهم وضمي أمامهم، ولم أكن أبالي. وكانت دائمًا تزورني في بيتي الصغير وتترك أولادها مع المربية. ولكن اليوم عندما جئت لها في حجرتها التي تسكن فيها مع ثلاثة أولاد لآخذها إلى بيتي كانت تبكي، كانت تدفن وجهها في راحتيها وتبكي قالت: إنها فصلت من العمل وأنها يائسة ووحيدة، وإنها تحتاجني وإنها لا تستطيع أن تأتي معي؛ لأن المربية لن تأتي اليوم ولا غدًا فهي لن تستطيع أن تدفع لها أجرها. نظرت إليَّ في يأس وهمست: أشرف ضمني إليك. أشرف كم أريدك!

ضممتها وأنا أشعر بتوتر غريب وأنا أنظر لأعين أطفالها وهم يشاهدون التليفزيون في لامبالاة.. بدأت في تقبيلي فهمست: أماندا.. أولادك..

قالت في عدم اكتراث: ماذا بيدي أن أفعل.. لا أملك سوى هذه الحجرة وأنت تعرف ولن أتركهم.. هل تريدني أن أدفن حية؟

قلت في حزم: سأبقى معك بعض الوقت ثم أرحل وغدًا..

اقتربت مني أكثر وهمست: أريدك يا أشرف.

قلت في عصبية: أولادك.. هل جننت؟

ابتعدت عني في غضب، وقالت: لم تعد تريدني.. أنت مثل كل الناس.. من يريد أمًّا لثلاثة أطفال؟ من يتحملني؟..

همست في رفق: أولادك معنا في الحجرة ألا تلاحظين؟

ولم تكن تلاحظ كانت يائسة، ولم تكن ترى سوى الخوف من المستقبل واليأس والفقر المدقع الذي تعيش فيه!

اقتربت مني من جديد، وبدأت في فك أزرار قميصي فصحت في قوة: لا يمكنك أن تفعلي هذا!

قالت في أسى: لا تريدني.

قلت في قسوة: لا.. لا أريدك! ليس الآن.

ولم أكن أريدها، ولم أكن أحترمها ولم أكن أشعر بالشفقة، كنت غاضبًا غضبًا كبيرًا.. وخرجت وأنا غاضب وعندما عدت إلى بيتي شعرت بشيء من الشفقة والخوف واليأس.

تنهدت وكتبت بسرعة: أحبك!

وجاء الرد الساخر: نعم هذا ما تقولينه دائما.

ثم كتبت من جديد «أشفق على أماندا يا أشرف وعلى أختي وألومها أيضًا.. أقصد أختي فالإنسان هكذا دائمًا.. يريد شيئًا بعينه ويتجاهل كل الأشياء الجميلة من حوله. أختى عندها طفل جميل وماذا تفعل؟ تتجاهله تظن أنه عبء أو مصيبة أضافها الزمن لمصائبها. وهكذا تظن أماندا أيضًا. ربما الزمن لم ينصفهم ولكن لماذا نكثر من ظلمنا لمن حولنا؟ لماذا بعد أن تذوقنا مرارة الظلم نقسو كل هذه القسوة؟ لا أدري. ولا أستطيع أن أنظر إلى عين أختي، اعذرني يا أشرف لقد أقسمت لنفسي يومًا أنني لن أتسرع في حكمي على البشر، ولكنني لا أسامح من يقسو حتى ولو كانت القسوة في لحظات الهلع واليأس. أنا مثلًا.. أتصور نفسي مكان سالي لو مثلًا تزوجتك وبعد الشر.. مت! ماذا كنت سأفعل؟ لو ترك لي الزمن قطعة منك كنت سأحتفظ بها هنا بجانب قلبي ،ولكنني رومانسية كما تعرف!».

كنت أرى ابتسامته وهو يقرأ الخطاب وجاء الرد:

«خيالك يذهلني ويفاجئني.. تزوجتك ومت أيضًا! يا إلهي.. كم أخشاك يا وفاء! ولكن لا أستطيع أن أمنع نفسي من الإعجاب بكل هذا الذكاء الذي ظهرفجأة والتأملات والتحليلات! هل هو عملك الذي أثقلك؟ هل هي تجربتك الغريبة مع أمك وأختك وكل من حولك؟ أو ربما أنا بإيلامي لك.. دون قصد بالطبع! فلأقل لك الحقيقة يومًا ما ظننت أنك أغبى امرأة رأتها عيناي ولا يوجد شيء أكرهه في المرأة مثل الغباء! فالمرأة الغبية تقضي على أي إشعاعة أمل داخل الرجل.. تقتله حيًّا.. ولكنني لا أراك غبية الآن يا وفاء ولم أرك غبية منذ زمن.. منذ بعثت لي بخطاب ما لا أتذكره جيدًا ولكنك قلت لي في قوة إنك ستعيشين سواء أنا موجود في حياتك أم لا.. هل تتذكرين؟» .

وكان يكتب لي كثيرًا، وكنت أجيب كثيرًا.

و لا أدري أكان يكرهني ثم أحبني.. أكان يحتقرني ثم احترمني؟ هل تغير أم تغيرت أنا أم تغيرنا معًا؟ ولماذا يبعث لي؟ ولماذا بعث لي؟ هل أغراه إلحاحي؟ هل هو القدر أعطاني فرصة أخيرة.. هل أشفق علي؟ وماذا يتوقع مني وماذا يريد؟ وهل يوجد سبب لكل شيء؟

خيل إلي أن القدر يعشق المفاجآت.. وأننا قد فقدنا الكثير في غمرة ابتلاع مفاجآت القدر.. وكل منا عنده حلم مستحيل، وكان حلمي يبقيني، وكان هو يرويه بخطاباته!

أشرف لم يزل يشفق على المطارات.. أماكن لا تصبح غاية في حد ذاتها أبدًا.. أشرف أصبح مطارًا ككل المطارات يحمل الطائرات ولا يتحرك من مكانه وأبدًا لا يحلق في الهواء.

قال منذ سنين.. «كم أشفق على المطارات» وقالها من جديد. وخيل إلي أن العالم يمكن تقسيمه إلى مطارات وطائرات.. فقط لا غير.

وكنت أشعر برغبة في الكتابة إليه في كل لحظة، وكان يكتب لي خطابًا كل يوم.

وكانت خطاباته دائمًا قصيرة، ولم تكن أبدًا على موضوع محدد. كنت أكتب أنا: أحبك.

وكان يجيب: جودة الطعام في أمريكا يرثى لها!

وكان أشرف مختلفًا عن خيالي. وكان خيالي قد نما كثيرًا في السنوات العشر الماضية. فلم يعد أشرف يمسك بذراعي ويقول في قوة: لن تخرجي من البيت اليوم! أنت ملك لي.. أتفهمين؟ ولا أريدك أن تعملي ولا أن تنظري لأي رجل غيري!

كان أشرف في أحلامي الآن دافئًا وحنونًا يغمرني ولا يذيبني وكان يأخذني بين أضلعه كل يوم وكانت لمسته حنونة وكان فخورًا بي وبما حققته!

كان أشرف فخورًا بالدروس الخصوصية، وبسفري كل يوم من دمنهور إلى الإسكندرية وبطريقة معاملتي للطالبات المراهقات.

نعم صنعه خيالي.. وكان أشرف في خيالي الآن ليس قويًّا وصلبًا كالحديد.. ولم يعد أشرف العصا التي تسندني كما كان في خيالي منذ عشر سنوات.. بل أصبحت أسنده أنا أحيانًا ويسندني هو أحيانًا.. وكنت أراه ضعيفًا.. إنسانًا.. وأحببته أكثر ..

نعم صنعه خيالي.. ربما لا يعرفني..

ولكنه معي كل لحظة.. أصبح كوب الشاي الذي أشربه كل صباح قبل الذهاب إلى عملي، وأصبحت بالنسبة له كوب القهوة الغامقة الذي أتخيل أنه يشربه كل صباح.

كنت صديقته وكان صديقي.. وكانت علاقتنا غريبة، ولم تكن مثالية! وهل توجد علاقة مثالية!

كتب يومًا: ما رأيك في اللون الأبيض؟ أتصور أنه اللون الذي يستعمله كل من لا يملك تاريخًا!

من يملكون التاريخ لا يحبون اللون الأبيض في البناء!

ابتسمت وأجبت: وفي مصر أي لون نستعمل؟

جاء الرد بعد أسبوع: اللون الأصفر! بالطبع.

و لم أحاول يومًا أن أتصل به عن طريق التليفون، ولا أن أسمع صوته ولم يعطني رقمه ولم أطلبه ولم يتصل هو بي. وكنت أخاف الكلام معه، كنت أخاف من أن ينعقد لساني وصوته لم يترك أذني أبدًا. والعمر يمر سريعًا سريعًا جدًّا.

ثم كتب:

«عزيزتي وفاء، هل شاهدت التليفزيون؟ وقرأت الجرائد؟ غزو الكويت! ضحكة غريبة خرجت مني وأنا أقرأ الخبر، ألم أقل لك إن المال يفعل المعجزات. ترى متى سيصبح زوج لبنى وزيرًا في حكومة عراقية جديدة!!! يأخذ أوامره من الفستق وصانعي الفستق وبائعي الفستق! متى؟ بعد عام.. ثلاثة عشر.. يومًا ما قريبًا سيعود مهند إلى العراق ومعه لبنى. أعرف يا وفاء. لا بأس لن نتكلم في السياسة فلنتكلم عنك أنت. متى ستتزوجين؟ ألا تشتاقين لطفل؟ تكلمي معي عن نفسك.... ماذا تريدين يا وفاء؟»

ماذا أريد؟ كان يعرف وكنت أعرف، أنه يعرف، ولا أدري أكان يسأل من أجل أن يتأكد أم أنه سؤال انفعالي خرج منه وسط الأحداث العالمية المجنونة! وكنت أتصور زوج لبنى وزيرًا في المستقبل، وكنت أتصور لبنى بملابسها الغالية تجلس بين أصحاب المستعمرات القديمة وأصحاب المستعمرات الجديدة بريطانيا وأمريكا!. ولا تأكل سوى الفستق. تتكلم بلسانهم وتدعو إلى أكل الموز حتى التخمة وتبيع الفستق وتشتريه. ولم أكن أدري أأدركت لبنى انهزامها واستسلامها أم أنها لم تزل في غفوة الغضب

تحارب كل شيء وأي شيء؟ ولكنها تركته إذن؟ من أجل الفستق؛ لأنه كان يأكل الفستق ولم تكن تدري أنها ستبيع الفستق وتغرق فيه! وبدا لي أن الفستق مسحوق سحري يصيب البعض بلعناته والبعض بالسعادة حتى الثمالة!

و بدأت أشعر أن الحل يكمن في حبات الفستق، ولكن عقلي لم يصل إلى المعادلة الصعبة بعد. كيف أجعل من حلمي حقيقة؟ وكيف يعود إلي أشرف؟ الحب وحده لن يعيده، وكل الأفكار الرومانسية والساذجة لن تعيده. لا بد أن أستعين بالفستق. وربنا موجود.

ثم كتب:

«وفاء.... بكيت من جديد.. بكيت ساعة كاملة.... ربما ساعة... ربما أقل ولا أخجل من هذا.... لماذا أخجل؟ ماذا فعلت لأخجل؟... أغلقت المغارة وأنا بداخلها، وكان الكنز كله قد سرق، وكنت أنا وحيدًا، والمكان ضيقًا ضيقًا جدًّا.

أكبر مجتمع مستهلك كنت لا أرى منه ولا أشم سوى رائحة المرحاض! وكان كل شيء في أمريكا موجودًا بغزارة: المنتجات الغذائية، المنتجات الإلكترونية وحتى المنتجات البشرية. البهجة المميتة واليأس المدمر. كانت بلدًا غزيرًا. ما أخبار مصر يا وفاء؟ هل تغيرت؟»

في هذا اليوم شعرت بغضب جامح وقلة صبر.. فكتبت في غضب: ماذا ستفعل لو تزوجت؟ يمكنني أن أتزوج أتعرف هذا؟ من سيتكلم معك؟

وندمت على الخطاب، كان انفعاليًّا وطفوليًّا! ولم أجب عن سؤاله ولم أخبره ما أخبار مصر!

و جاء الرد بعد أيام: كيف حالك يا وفاء؟ لا أستطيع الإجابة عن سؤالك.. اعفيني فأنا لا أجيب عن الاسئلة التي تبدأ بلو! ولكنك لم تتزوجي.. والحمد لله على هذا!

الحمد لله!!!! هذا كل ما قاله! ماذا يعني هذا؟ وماذا يتوقع؟ هل علي أن أفرح بهذا الرد أم أحزن؟.. شيء بداخلي كان يحثني أن أفرح ولا أحزن! قال: الحمد لله!!! ألم يقل هذا؟

وكنت أرى بخيالي الآن الكثير من الصور والأحداث، وكانت لكل دولة صورة في خيالي لا تتغير، صورة مرتبطة بأشرف وكلام أشرف وخطابات أشرف.

كنت أرى بريطانيا بلون أخضر غامق وبيوت عتيقة وأمطار غزيرة تسقط في بالوعة كبيرة بلا توقف. كنت أسمع صوت الأمطار الرتيب وفي وسط

الشارع المظلم، كنت أرى جثة الدكتور محمود داود بجانب البالوعة ودماؤه تختلط بالأمطار. وكنت أشم رائحة الأمطار الطازجة والدماء القديمة وكانت هذه هي بريطانيا.

أما أمريكا فكنت أراها بعيون أشرف.. أرى المرحاض الأبيض المتسخ والقيء والمناديل الورقية والكعك الكبير بالقرفة والسكر المحروق.. وكنت أرى أشرف وسط الكثير من البشر يهرولون لشراء الكعك وهو يقف في مكانه تائها محبطًا وكان لا يملك ثمن الكعك بالقرفة والسكر. . كنت أشم رائحة السكر المحروق والقيء. وكانت هذه هي أمريكا.

وأصبحت مصر في خيالي هي عمتي علية تجلس على الأريكة المذهبة وسط حجرة الصالون المذهب وفي يدها الكثير من المفارش، وكنت أشم رائحة البخور الممتزجة بالنفتالين والطبخ القديم. وكانت هذه مصر.

* * *

كنت أفكر طوال اليوم في حبات الفستق وخاصة الحبتين اللتين رأيتهما في جيب أشرف يوم عشقته. وكانت حبات الفستق لا تترك مخيلتي. ولا أدري كيف أستفيد من الفستق. وكيف أكسر سلبيتي كما حطمت الخوف بداخلي من قبل، ولم أكتب له شيئًا. كنت فقط أفكر . وخيالي يجمح ويجمح.

حتى كتب هو:

«عزيزتي وفاء، اليوم حصلت على جواز السفر الأمريكي. هنا في جيبي. أصبحت أمريكيًّا يا وفاء، ولا أدري ماذا يعني هذا.. أصبحت المسئول عن كل مصائب البشر وأموال البشر، أصبحت مكروهًا من الكثير ومهابًا من الكثير. الكل سينحني لي باحترام، وربما يصيبني خنجر في قلبي يومًا لأنني أمريكي! وأخافه، أخاف الخنجر.. سوف ألوح بيدي فتفتح أبواب السيارات وحدود الدول، وسوف أملي أفكاري لكل الجرائد وسوف يكتب اسمي على كل البيوت.

فعندي جواز سفر أمريكي. ومع أنني لم أقتل نملة يومًا ولا غرت على بيت! سوف اتهم بأنني مسؤل عن كل المذابح وكل القتلى وربما أموت غدرًا من أجل ذنب اقترفته الحكومة الأمريكية. وباسمي سوف ترتكب جرائم كثيرة وباسمي سوف تتلاشى حدود بلاد كثيرة.

و ماذا في جواز السفر؟ ومن أكون أنا؟

و هل أنا مجرد جواز سفر؟ هل أصبح الإنسان فقط بطاقة من أوراق رخيصة وحبر رديء؟

أهذا أنا؟

الكل ينظر إلى جواز سفري ولا أحد يسأل من أكون؟

بطاقة صغـيرة بالطبع لا أكثر. بطاقـة صغـيرة وحفنة من العظام والدم لا أكثر. ولو مت يومًا فربما ينظر إلي البشر على أنني أمريكي آخر قد مات وربما يفرح البعض وربما يشن البعض حروبًا باسمي بعضها من أجلي وبعضها ضدي.

من أكون يا وفاء؟

مصري؟ وماذا يعني هذا؟

شعور فقط. كلمة. إحساس لا أكثر. لماذا تحبينني؟ كده! من غير سبب! ولماذا أشعر أنني مصري؟ كده من غير سبب!

عشت في بريطانيا غني ومدلل ثلاثين عامًا! ولم أشعر أنني بريطاني وعشت في أمريكا ثمانية أعوام في فقر مضجع في جحور الفقراء ولم أشعر أنني أمريكي.. وعشت في مصر شهورًا وكنت أعرفها وكانت في دموع أمي وعجرفة أبي وكانت في أغاني عبد الحليم وأم كلثوم وكانت فيك وفي لبنى وفي خالتي وفي سالي وكريم وفي الجلسات والأفراح! وساعتها كنت أنظر من نافذتي إليكم في استعلاء وكنت أشعر بأنني لا شيء! وتسرب الشعور إليَّ تدريجيًّا مع الحلم واليأس والعجز والكرامة والحزن.. تسرب إليَّ الشعور وأنا أمام لبنى.. الشعور بالزهو والخوف من الفقر والكرامة والكبرياء وخوفي من أن تعرف حقيقتي ورغبتي أن أدفع أجرة التاكسي.. وغيرتي على الشرق الأوسط وسخطي على صانعي القرار ومتخذي القرار ومنفذي القرار والقرار نفسه!

جواز سفر.. جمعت جوازات السفر كجامع الفراشات المحنطة وجاءني الشعور بأنني مصري! جاء كده! من غير سبب!»

نمت والخطاب في حضني وكنت أشعر بالارتياح والأمل، وأحلم بالفستق وما يفعله الفستق!

* * *

عندما انتهيت من آخر درس خصوصي في تاريخ مصر الحديث كتبت رسالة إلى أشرف كما أفعل كل يوم... وقلت في تلقائية غريبة:

«سألتني من قبل كيف حال مصر! بخير. نستعمل البريد الإلكتروني الآن وكل مدارسنا بها كمبيوتر واحد على الأقل وكل الناس تشتري الكمبيوتر، البعض لا يستعمله ولكن الكمبيوتر أصبح يدخل البيوت المصرية وعندنا أسواق تجارية كبيرة الآن هل تعرف هذا؟ كل الماركات العالمية! بالي للأحذية وشانيل وكريستيان ديور للملابس والمكياج. أصبحنا نقضي أمسياتنا نستمتع بكل الأسواق التجارية. أصبحنا بلدًا حديثًا ومتقدمًا.

آه.. نسيت أن أخبرك.. أصبح عندنا مطاعم صينية أيضًا! هل ترى كيف أصبحنا بلدًا متسامحًا ومتقدمًا ويؤمن بالمساواة؟!

أصبحنا نحترم الثقافات الأخرى ونقدرها حق التقدير ونجرب كل أنواع الطعام حتى السوشي الياباني!

سألتني كيف حال مصر؟

مصر تفتح الباب على مصراعية وترحب بكل من يساهم في خطة التطوير والتقدم. وحقًّا هناك تطور كبير في الإنتاج وخاصة إنتاج الشيكولاتة السويسرية.

سألتني كيف حال مصر؟

نحن الآن في منتصف التسعينيات وأنا أتوقع طفرة كبيرة في السنوات العشر القادمة وأتوقع أن يمسك كل طفل مصري مصاصة مصنوعة في أمريكا وبدلًا من أن يحمل الأب المصري بطيخة إلى بيته أو كيس جوافة! سوف يحمل وجبة أمريكية من الهامبورجر مع لعبة مصنوعة في الصين. وسوف نتنازل عن كل العادات المتخلفة كعروس المولد وكعك العيد.. إلخ وسوف نستبدل بكل هذه الأشياء التافهة الآيس كريم الإيطالي والجاتوه الفرنسي والحلوى الهولندية.

نحن الآن في منتصف التسعينيات، وياليتك كنت هنا يا أشرف. ليتك ترى التغير الذي طرأ على بلدنا، وعلينا وعلى الجمعيات التعاونية التي أصبحت كلمة يستعملها الأجداد وهم يهذون.

مصر تقف على بوابة عصر جديد.. وتذكر هذه الكلمات بعد عقد من الزمن.. عندما يسود الامن والسلام العالم..

عندما يتحرر العراق وتشتهر عمتي علية وتصبح أفكارها عن عذاب القبر مدونة على كل حائط وجدار، عندما يأكل المصريون الأكل الصيني وينادون بمبادئ الثورة من جديد..

تذكر هذه الكلمات، وحاول أن تفهم أن مصر الآن مستعدة للفستق!

لا بأس..

من نحن يا أشرف؟ اليوم وأنا أدرس تاريخ مصر الحديث شعرت بأنني عرفت أخيرًا من نكون. لا تحتاج إلى دراسة كل القرون الوسطى. ما تحتاجه هو دراسة التاريخ الفرعوني والتاريخ الحديث! لتفهم من نحن! يا أشرف لماذا بنينا الأهرامات؟ لنمجد ونخلد ملوكنا؟ نعم، وأنفسنا... ماذا ترى عندما تنظر إلى الأهرامات؟ ترى وقتًا ومالًا ونفوسًا بذلت في سبيل هذا الصرح الكبير لتمجيدنا لأننا نعشق الزهو والفخر والضحك.... لذا بعد كل هذا الوقت الذي قضيته في أمريكا أنصحك بالعودة إلى مصر وفتح مشروع صغير، وأنا أريد أن أشاركك مشروعك مشروع الفستق... نستورد الفستق من إيران أو سوريا أو أمريكا أو الثلاث معًا ونبيعه في مصر في كل المحمصات وسوف ينهال عليه الفقير والغني حبًّا في الزهو! وسوف يباع الفستق أكثر مما يباع الخبز، فالكل يأكل الخبز، ولكن القلة المتميزة تتذوق الفستق... ولن تصبح قلة سينهال المصريون على الفستق كما ينهالون على السيارات والتليفونات والكمبيوترات، وسوف يصبح البيت الذي لا يوجد فيه فستق كالبيت الخالي من الصالون المدهب بيتًا بلا صالون مدهب بيت فقراء ونحن المصريين مثلك يا أشرف نكره الفقر ونخافه ولكن اللي يخاف من عفريت يطلع له! فكرت في هذا سنين... سنين وأنا في انتظارك لأتزوجك وأنت لا تبالي... ولكنك تحبني بعد مرور ثلاثة عشر سنة تحبني اليس كذلك؟»

استعنت بالفستق لأجذبه كما تجذب الموجة حبات الرمال. كان عليَّ أن أفكر وأستعين بالفستق. فهكذا يفعل الجميع! وكنت أشعر بطمأنينة غريبة وفرح وكنت أعرف النتيجة!

* * *

جواز سفر

«لكل عصر جواز سفره ولكل وطن شعور مختلف»

أشرف داود

- 7 -

مصر 1993 مطار القاهرة الدولي:

نظر أشرف إلى جواز سفره المصري وجواز سفره الأمريكي.... أي جواز يختار؟

نظر إلى الطابور المصري والآخر لغير المصريين... طابور غير المصريين كان أقصر.... مد يده بجواز السفر الأمريكي.... كل عصر وله جواز سفره.... وكل بلد ولها طعم خاص.. ولكل وطن شعور مختلف، واليوم بجواز سفره الأمريكي كان يشعر بأنه مصري كما لم يشعر من قبل!

و لماذا شعر بأنه مصري؟ وما معنى هذا الشعور؟ لا يدري. شعر برغبة في أن يغمض عينيه وينام وربما يصحو ليلعن تلك السنين وتلك البلد وهؤلاء البشر! ولكنه الآن يريد أن ينام. فقط ينام. ومع أن الرحلة كانت طويلة فهو لم ينم طوال المسافة.

مددت يدي في ثقة ولهفة.... لهفة انتظار ثلاثة عشر عامًا... ولم أنظر إليه.... فقط كنت أريد أن أصافحه.... لم تلتق أعيننا. اختلست نظرة.... نظرتين ربما... يبدو مختلفًا، تجاعيد زحفت إلى عينيه وشعيرات بيضاء زحفت إلى رأسه. كان يبدو مختلفًا عن الشاب الذي لم يترك مخيلتي... ربما اختلس هو الآخر نظرة أو اثنتين... بالطبع كنت مختلفة نظر إليَّ وقارن بين ما كنت وما أصبحت شعري مربوط ذيل حصان لا توجد أي زينة على وجهي. أرتدي بلوزة بيضاء وجونلة سوداء لتبدي نحافتي وحذاء أسود فقد لونه مع تراب القاهرة فأصبح يتأرجح ما بين الرمادي والأسود وكان حذاءً بكعب وضيقًا وندمت على أنني ارتديته، وكنت قد وضعت طلاء أظافر في أصابع يدي وذهبت إلى مصفف الشعر ولكنني لم أجرؤ على أن أفرد شعري أمامه. كنت كالبلهاء محرجة وخجولة وسعيدة .

بدا الموقف محرجًا وغريب ولكنه كان يعرف كل شيء عني وأعرف كل شيء عنه. سار كل منا بجانب الآخر في صمت. أذهلتني جديته. أذهلتني عيناه اللتان لا تفترسان كل شيء وتتوغلان داخل كل ركن.. أذهلتني عيناه الثابتتان وربما وجد هو الآخر الموقف غريبًا. لا أدري. كان كل منا يعرف الآخر عن ظهر قلب.

قلت وأنا أكسر حدة الإحراج: سنركب القطار ونذهب إلى دمنهور الآن ماما في انتظارك.

ابتسم قائلًا: والفستق... مشروعنا؟

- نتكلم في القطار.

جلست بجانبه وأنا أتحاشى عينيه ثم قلت: مشروع العمر... هل ستستقر في مصر؟

هز رأسه بالإيجاب.

قلت في حماس: قرار صائب

نظر إليَّ وابتسم ابتسامته التي كنت أعرفها: تغيرت يا وفاء.... بعض الشيء ولكنك مازلت .... بماذا أصفك؟

- ساذجة ومجنونة...

- قال مسرعًا: أبدًا... مازلت صغيرة... أحب فيك نظرة الشباب التي لم تترك عينيك.

كنت أشعر بتوتر وإثارة وفرح وقلق. هذا ما كنت أحلم به طوال عمري، وما إن رأيته حتى توقف عقلي وكأنه أدى مهمته الأخيرة.

و فجأة لم أعرف ماذا أقول.. كان لدي الكثير لأقوله، ولكنني نسيت كل شيء وركزت كل خيالي على كتفه التي تكاد تلتصق بكتفي ولكنها لم تلتصق. كالعادة مع أشرف كل شيء بالكاد يحدث. كلما اقترب الأمل هرب مني كالفأر الماهر، ولكنني كنت أمسك الأمل هذه المرة وقد قيدته بقيد حديدي داخل خيالي.

نظرت إلى يده التي تدق على فخذه في رتابة وكأنه يشعر بعدم استقرار غريب وخوف وارتياح وألم وإحباط.

ماذا يحدث الآن لو وضعت يدي على يده؟

ها أنا اهتم بالتفاصيل مرة أخرى!

أغمضت عيني وهمست: أشرف.

قال وهو يحملق في الأراضي الزراعية من نافذة القطار: نعم.

قلت في تلقائية: هل تعرف ماذا يدور في خيالي؟

ابتسم في تهكم وقال وهو لا ينظر الي: ليس عندي ادنى فكرة.. خيالك لا يتبع أي قواعد.. خيالك يا ابنة خالتي متوحش.

قلت في حنين وصراحة: كنت أحلم بك وأنا صغيرة.. هل تعرف هذا؟ كنت أحلم أحلام ..

صمت.

نظر لي لثوان وقال: أحلام ماذا؟

قلت في عتاب: أنت تعرف.. أحلام مراهقات.. ولكنها ليست تافهة، لم تكن تافهة أبدًا. كانت.. أحلاما جريئة.

نظر لي وهو يتصنع الدهشة ثم قال والشجن لا يترك صوته: جريئة!

قلت في حماس: جريئة جدًّا.. سأحكيها لك يومًا ما.. هل تريد أن تعرفها يا أشرف؟

صمت لثوان، نظر لي في أسى ثم تغيرت نظرته إلى نظرة رقيقة وقال: بالطبع أريد أن أعرفها. قلت في حماس: في دمنهور سأحكيها لك بالتفاصيل.

قال في رقة: بالتفصيل.. بأدق التفاصيل..

لم أكن أريد أن اتكلم أكثر من ذلك. ما أجمل الفستق! يفعل المعجزات .. الفستق وخيالي اليقظ.

أغمض هو عينيه وساد الصمت.

توقف أشرف للحظات في محطة دمنهور وكأنه يسترجع ذكريات قديمة. العشش العشوائية لم تتغير. الفطاطري مازال موجودا ومحل بيع الكبدة تلاشى. ولم يكن يدري أينم هذا عن أن كل الحيوانات مجهولة الهوية قد تلاشت من مصر أم أن المصريين قد قاطعوا الكبدة لسبب ما، ربما لأنها قادمة من المستعمرين الجدد!! ربما صاحب المحل مات إذن! أو فتح محلًّا كبيرًا في منطقة أخرى. كان يحملق في سلالم المحطة الواسعة وكان يتذكر السيدة السمينة التي تجلس أمام عشتها أمام المحطة في فخر لتصرخ في اطفالها وتدعي عليهم وتسبهم ثم تتجه إلى العشة وتبدأ في الكنس والمسح بلا ادنى مشاعر على وجهها. أوقفت تاكسي. كانت عيناه معلقتين على محل الخردواتي والدبب البيضاء ذات القلوب الحمراء الممتلئة بالشغف والكلمات الإنجليزية المأثورة، كلمات الحب... وكأن الحب بالإنجليزي ليس عارًا.. والحب بالعربي موضة قديمة وعار! كل كلمات الحب على الدببة بالإنجليزية.. ابتسم من جديد..

ركبنا التاكسي معًا! كان السائق في منتصف العمر، مكفهر الوجه وقد ملأ التاكسي بالخرزات الزرقاء وكان يستمع إلى أغنية لمحمد ثروت.

«حاسب على جلبي حاسب لما تسلم علاي!

حاسب على جلبي حاسب لحسن جلبي في إيداي!»

فقال هو في تلقائية: وما المشكلة إذا صافح رجل امرأة.. كم يهتم الناس بالتفاصيل في مصر.. ماذا في نظرة؟ ماذا في سلام؟.. ماذا في عناق؟ ماذا في قبلة؟ لا شيء لا تعني شيئًا في بلاد أخرى.. أما في مصر فلكل تصرف معنى ولكل نظرة معنى.. نحب التفاصيل أليس كذلك يا وفاء؟

قلت في حماس: نعشق التفاصيل.. ماذا طبخت أمي؟ وكم ملعقة سمن على البامية اليوم؟ ماذا اشترت أختي؟ وهل عندها صالون مذهب أم لا؟ وهل لديها ستائر بكورنيشة أم بدون كورنيشة؟ والمفرش بدانتيلا أم بدون دانتيلا؟ والنجف كريستال أم زجاج و... و...

نظر لي وابتسم وقال: تغيرت يا ابنة خالتي.

لم أجب.

وشعرت بتفاؤل غريب وعشق غريب لدمنهور والعشش والبيوت واللافتات الكبيرة والشوارع الشبه قروية الشبه حضرية. وكنت من دمنهور وكنت متحفظة وكنت في الثالثة والثلاثين وكنت أخشى الزمن وكنت غبية بعض الشيء وذكية بعض الشيء وكنت خائفة بعض الشيء وجريئة بعض الشيء وفي هذه اللحظة كنت أحب محمد ثروت وموسيقى مصر والصخب والأفراح والحب و.. كنت حائرة وبالكاد أتمالك أعصابي!

نظر إلى الفطاطري والكبابجي في ارتياح فهمست في ثقة: مصر الآن مستعدة للفستق!

ما إن دخلنا بيتنا حتى بدأ يتفقد الصالون فوجده كما هو لم يتغير مع أن أمي كل عام تقول أنها ستعيد تنجيده ولكنها لا تفعل.

ما إن رأته أمي حتى ضمته وقبلته قبلات قوية وكثيرة وهي تصيح: أشرف.. حبيبي.. أزيك يا حبيبي.

كان يحملق في شعري المربوط وراء ظهري وفي نظارتي الجديدة وفي الكراريس الكثيرة التي تعيش معنا على مائدة الطعام.

صافحه كريم وعانقه ولكنه لم يتكلم كثيرًا. كان كريم يعشق المال ويكره الفقر. وكان كل أمله أن يتزوج من فتاة غنيه تملك شقة! ولم يتحقق أمله حتى الآن.

دخلت سالي في حماس وهي تصيح: أشرف!

هل عانقته هل فعلت؟

نعم يبدو هذا. كانت تبدو مختلفة امتلأ جسدها قليلًا وكانت تتصبب بالأنوثة.

وحسدتها من جديد على جرأتها. ولكني كنت قد عزمت أمري سوف يعانقني يومًا. قريبًا.

تنهدت وهي تجلس بجانبه وقالت في شيء من الدلال، شيء من الأسى: شفت اللي جرى لبنت خالتك يا أشرف. مصايب ومصايب

هز رأسه بالإيجاب ولم ينطق.

قالت وهي تنظر إليه فجأة: ولكنك لم تزل وسيمًا ولم تزل ترتدي البنطلون الجينز.

ابتسم في تهكم: للضرورة أحكام!

- كنت سأتزوجك يا أشرف الآن ولكنني تزوجت! آه لو كنت أعرف بمجيئك.. كيف جئت؟

أسند رأسه على المقعد ولم يجب. كان ينظر إلى خالته وهي جالسة على الكنبة الكبيرة وبجانبها زوجها حشر نفسه بجانبها وأمامهما منضدة صغيرة وصينية كبيرة بها أرز ومقدونس وطماطم وحلة بها اوراق الكرنب وقالت في حماس: حعملك محشي من اللي بتحبه يا حبيبي.

حائط البيت لم يزل متسخ والمفرش الدانتلا لم يزل على المائدة، وكل شيء كما هو وكما كان منذ ثلاثة عشر سنة.

ماعدا الناس. الأسى كان يسيطر على العيون والعمر يتضح على الملامح.

جلس أمامي وقال في جدية: فلنتكلم عن المشروع.

هززت رأسي بالايجاب.

قال في جدية من جديد: هنا أم في حجرة الصالون

قلت وأنا أقوم وآخذ معي بعض الكراريس لتشد أزري: في حجرة الصالون.

جلس على الكنبة وفرد ذراعه.

أغلقت الباب في ارتياح. كنت أفتقد شيئًا به. كان مختلقًا. جادًّا. نعم المشكلة أنه كان جادًّا. اعتدت أن أراه رقيقًا ومناورا! لم أعتده جادًّا!

كان يعشق الألعاب والمناورات والمغامرة وافتقدت هذا. هذا ما كان يجذبني إليه. مناوراته وألعابه.

همست وكأنني انغزه بعصى لأوقظه: هل ستعترف اليوم أم غدًا!

ابتسم وقال: لم يزل في مصر قوانين طوارئ؟

- ماذا تقصد؟

- ماذا ستفعلين بي يا وفاء حتى أعترف؟ تعذبينني؟ ألم أقل لك منذ زمن: الاعتراف تحت التعذيب يفقد رونقه وكأنك حصلت على الدرجات النهائية بالغش!

- الحصول على الدرجات النهائية يكفي ولا تهمني الوسيلة. من يراك تتكلم هكذا يظن أن حياتك كانت مثالًا للشرف!

رفع حاجبيه في دهشة وشيء من الغضب: أصبحت جريئة جدًّا! هل هذا نقد يا وفاء؟ ثم ألم نأتي لنتكلم عن المشروع. هل جئت كل هذه المسافة لأتشاجر معك؟

بلعت ريقي وقلت في رقة: فقط أفتقد ضحكاتك.

- لن أضحك الآن ربما لو أصبحت غنيًّا يومًا ما من جديد.

- و لو لم تصبح غنيًّا؟

قال وصبره ينفد: لن أضحك. فلنتكلم عن موضوع الفستق.

- فلأحصل على الاعتراف أولًا.

ابتسم وهو يتنفس الصعداء: ألم أقل لك الاعتراف بهذه الطريقة ليس به أي انتصار أكره السجن والتعذيب والمعتقلات والنساء التي تلح كالسجان!

رفعت كتفي في لامبالاه: ألن تعرف اولا بماذا أريدك أن تعترف!

ضحك وهو يقوم: تملي علي الاعتراف أيضًا؟ وفاء أنا متعب أريد أن أنام.. ربما نتكلم غدًا.

لا أدري أأشفق على نفسه وهو يدخل نفس البيت بعد كل هذه الأعوام وبعد أن فقد كل شيء؟ هل رأيت أسى في عينيه؟ نعم الكثير من الأسى والشعيرات البيضاء كانت واضحة أكثر الآن.

همست في ترجٍّ: دخلت حجرتي ولمستني. هل تتذكر؟ لمست خدي وعنقي وذراعي وقلت لي إن الحب جميل هل تتذكر؟ اعترف يا أشرف! لم أكن أتخيل هذا. قل الحقيقة!

انفجر في الضحك فجأة وقال: يا إلهي! وفاء هل تمزحين؟ كل هذه المسافة لتعرفين ما إذا كنت خدعتك أم لا. لمستك أم لا! هل تظنين أنني

اتذكر هذه الواقعة! لو نسيت الرقم السري وخسرت الملايين هل تظنين أنني أتذكر هذا؟

قلت في ترجٍّ: ولكنك تتذكر! أعرف أنك تتذكر!.

نظر إلى عيني، ابتسم فجأة ابتسامة افتقدتها.. ابتسامته التي تنم عن خبث الطفل وشقاوة الرجل وهمس وهو يضع يده على الباب: نعم أتذكر.

- لمستني وقلت هذه الكلمات.

قال في براءة: أبدًا لم يحدث هذا.

- كاذب!

- ماذا عن الفستق؟

- كاذب

- تعرفينني أعشق الكذب

- لم تتغير.

- بعض الشيء ربما.

أغمضت عيني وأخذت نفسا طويلا وهمست: هل يمكنك أن تعانقني الآن. كما عانقت سالي؟

فكر لثوان ونظر إليَّ ثم ابتسم وقال: ربما ولم لا.

فتح ذراعيه وقال الجملة التي كنت أسمعها دائمًا: تعالي هنا!

سمعت دقًّا على الباب وكاد قلبي يتوقف وأنا أصيح: مين؟

- أنا سالي، الأكل جاهز.

ابتسم وهو يهمس: تعالي يا وفاء.

سرت الخطوة المتبقية. وضعت يدي على قميصه الأبيض، على صدره وأنا أتحاشى عينيه ثم ألقيت برأسي على صدره في بطء فأحاط خصري بذراعيه والشوق يتفجر بداخلي وهمست: هذا حضن مصري أم أمريكاني؟

همس في أذني: بعد ثلاثة عشر عامًا ومسافة آلاف الأميال تطلبين مني حضنًا وتسألينني ما إذا كان حضن مصريًّا أم أمريكانيًّا؟

أحطت رأسه بذراعي وهمست: لم يضمني غيرك أبدًا!

- صعبانة عليّ يا وفاء.

- ألست سعيدًا؟ أنت .. أول وآخر رجل في حياتي.

أمسك بذراعي وهمس: وفاء هل سنبقى هكذا ساعة؟

بلعت ريقي وقلت في أسى: لا تريدني. عليك أن تجيب عن سؤالي أولًا!

تركني واتجه إلى الكنبة وعينيه ممتلئة بالشقاوة والبراءة والخبث وهمس في تهكم وهو يفرد ذراعه على الكنبة : ماذا كان السؤال؟

- الحضن!

حملق في وجهي لثوان ثم قال: لا أدري.. كان حضنا قصيرًا جدًّا! لم أحدد بعد.

قفز الفرح من عيني وأنا أجلس بجانبه على الكنبة وألقي برأسي على كتفه من جديد في تلقائية وجرأة: أشرف!

- مصري يا وفاء.

- يعني إيه!

- مش عارف.. أنتِ قولي يعني إيه؟

- لم أتركك ولو للحظة.. تعرف هذا الشعور؟. مع إنك لا تقابل شخصًا لمدة طويلة تشعر أنه معك طوال الوقت.

قال في فضول: بماذا تشعرين الآن؟

- بحبات الفستق البريئة في فمي طازجة ولذيذة. وأنت؟

بدأ يداعب خصلات شعري ولم ينطق. كانت لمساته حنونه ورقيقة وكانت أجمل من أحلامي، كنت أشعر بنبض قلبه الحي ودفء جسده. وكانت قبضته على كتفي قوية وواثقة ولم أكن أريد أن أتركه أبدًا!

دقت سالي على الباب من جديد: أشرف الأكل حيبرد.

قال في جدية: نحن نتناقش في موضوع الفستق الآن، ابدءوا أنتم.

همست وأنا أمسك يده: لا تتركني مرة أخرى أبدًا!

قال في استنكار: أنا لم أتركك يا وفاء.

- و لكنك رحلت.

- لم يكن هناك شيء بيننا أصلًا لأتركك هل تفهمين قصدي؟

قلت في شيء من الغضب: والآن؟

فكر برهة ثم قال وهو يتزعم العبوس: الآن..

- الآن؟

- أعجبني الحضن المصري. إنك حنونة يا وفاء ورقيقة أحيانًا ولمستك صافية

مر بأصبعه على خدي وكأنه يحدد من أكون وما حدودي وكأنه يرسمني في خياله هو.

أغمضت عيني. هل كان حلمًا؟

هل قال هذا؟!

- أشرف.. أحبك طوال هذه السنوات..

ابتسم في سخرية: نعم أعرف.

- ستتزوجني؟

- ما تهديدك هذه المرة؟

- الفستق!

- لكنني فقـير الآن.. هل تتذكرين؟ معي ألفـا دولار لبدايـة المشروع لا أكثر، كيف أتزوج؟ فلننتظر بعض الوقت حتى نبدأ..

قاطعته في ضيق: نتزوج أولًا.

قال في تهكم: حتشتريني كمان! صعب يا وفاء.

قلت في غضب: ليس معي المال لأشتريك لو كان معي لاشتريتك بملايين الجنيهات.

تنهد مازحًا وهو يبعدني بعض الشيء لينظر إلى عيني وقال وذراعه لم تزل تحيط كتفي: لهذا الحد.

- أنا سأدخل بالمجهود وأنت برأس المال!

- ثم؟

- تتزوجني.

- ثم؟

- نبدأ المشروع.

- و لو لم ينجح؟

- نبدأ مشروعًا آخر! طالما هو مشروع مفيدًا سينجح والمصريون يعشقون المشروعات المفيدة كالسيارات أو التليفونات أو الفستق أو الجبنة المستوردة أو...

- من أين سنستورد الفستق إذن؟

- هل ستتزوجني؟

قال في صرامة: بالطبع سأتزوجك وهل لدي اختيار؟

- تحبني؟

- أحتاجك.

- كيف؟

- كنت أحتاجك طوال هذه السنوات لأتكلم معك. أعشق الكلام معك تستفزينني أحيانًا ولكنني احتاجك. أحيانًا كنت أفعل شيئًا أو أذهب إلى مكان ما وأقول لنفسي: آه لو عرفت وفاء ستغضب وتبكي و.. أو أقول.. يجب أن أخبر وفاء.. يجب أن أكتب لوفاء عن هذا وهذا وهذا.. كنت تقلقينني طوال الوقت وتتحدينني. ولم أستطع أن أخرجك من عقلي.

- تحبني إذن؟

- ربما.. لم أحاول تحليل مشاعري؟

- تحبني أكثر أم لبنى!

- أسئلة المعتقل عادت من جديد!

قلت في اضطراب: لا لن أسألكَ. فلنتكلم عن الفستق. من أين نستورد الفستق؟

- إيران أو أمريكا أو سوريا.

فكرت برهة: نعم إيران بلد عريق وعلاقتنا به منقطعة منذ زمن ربما لو فتحنا باب التجارة سوف نساعد على إعادة العلاقات الدبلوماسية ثم ..

قاطعني: وما شأننا وشأن العلاقات الدبلوماسية الايرانية! سياسة مرة أخرى! وفاء إياك!

- حسنًا. ماذا عن سوريا؟ سوريا بلد عربي شقيق والفستق الحلبي لا يعلى عليه!

- نعم حقيقي.

قلت في حماس: ولكن إيران لديها أسلحة نووية وبلد قوي!

- وأمريكا؟

- غنية وقوية وتتحكم في مصائر البشر.

سأل أشرف:- من؟

- أمريكا!

- ماذا عن الثلاثة بلاد معًا؟

همست في ثقة وأنا أشبك يدي بيده: مصر الآن مستعدة للفستق!

تمت بحمـد الله

د. ريم بسيوني



- دكتورة ريم بسيوني تعمل أستاذة للغويات في الجامعة الأمريكية بالقاهرة.
- درست في الجامعات البريطانية والأمريكية مثل جامعة جورجتاون ويوتا في أمريكا وجامعة كامبريدج وأكسفورد في بريطانيا.
- درست الدكتوراه والماجستير في جامعة أكسفورد في بريطانيا.
- لها كتب علمية عديدة صدرت عن أشهر دور النشر الأوروبية والأمريكية منها:

- Language and Identity in Modern Egypt «2014» Edinburgh University Press
- Arabic Language and Linguistics «2012»: Georgetown, USA
- Arabic and the Media «2010»: Brill, Holland
- Arabic Sociolinguistics 2009: Edinburgh University Press/ Georgetown University Press
- Functions of Code-Switching in Egypt 2006: Brill, Holland

- حصلت على المركز الأول في جائزة ساويرس للأدب يناير 2010 عن رواية «الدكتورة هناء».
- حصلت عام 2009 على جائزة أحسن عمل مترجم في أمريكا عن رواية «بائع الفستق» من مركز الملك فهد لدراسات الشرق الأوسط. وهي أكبر جائزة للأدب العربي في الولايات المتحدة الأمريكية.
- اختارت مجلة فورورد أكبر مجلة نقد في أمريكا رواية بائع الفستق من أفضل عشرة كتب على الإطلاق صدرت في عام 2009 في الولايات المتحدة.
- ترجمت رواياتها إلى الإنجليزية والإسبانية والإيطالية واليونانية.



المحتويات